الثقافة الدينية

إن أول ما يلزم الداعية المسلم من عُدَّة فكرية ، أن يتسلَّح بثقافة دينية ثابتة الأصول ، باسقة الفروع ، تؤتي أُكلها كلَّ حين بإذن ربها .

ونعني هنا بالثقافة الدينية : الثقافة التي محورها دين الإسلام : مصادره وأصوله وعلومه المتعلِّقة به ، المنبثقة عنه . وهذا أمر منطقي ، فإن الداعية الذي يدعو إلى الإسلام ، لا بد أن يعرف : ما الإسلام الذي يدعو الناس إليه؟ ولا بد أن تكون هذه المعرفة معرفة يقينية عميقة ، لا سطحية مضطربة . ولهذا كان لا بد أن يستمدَّ هذه المعرفة عن الإسلام من مصادره الأصلية ، ومن ينابيعه المصفَّاة ، بعيدًا عن تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين[1] .

وبهذا يكون الداعية على ﴿ بَيِّنَةٍ مِّن ﴾ رَّبِّهِۦ (محمد:١٤) ، وتكون دعوته ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ كما أراد الله لرسوله ﷺ ، ومَن تبعه واهتدى بهداه ، ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

(يوسف:١٠٨)

لا بد للداعية إذن أن يقف على أرض صُلبة ، من دراسة العلوم الإسلامية ، دراسة وعي وهضم وتذوُّق . ثم يُخرج منها شرابًا مختلفًا ألوانه ، فيه شفاء للناس[2] .

---

(١) إشارة إلى حديث : «يرث هذا العلم من كلِّ خلف عدوله ، ينفون عنه تأويل الجاهلين ، وانتحال المبطلين ، وتحريف الغالين» . رواه البيهقي في الكبرى كتاب الشهادات (٢٠٩/١٠) ، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٨٤) .

(٢) وانظر : كتابنا (الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة) نشر مكتبة وهبة ، و(ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق) نشر دار الشروق .

القرآن الكريم وتفسيره

القرآن الكريم هو المصدر الأول للإسلام، وبالتالي للثقافة الإسلامية. كل تعاليم الإسلام يجب أن ترجع في أصولها إلى القرآن: العقائد والمفاهيم، والقيم والموازين، والعبادات والشعائر، والأخلاق والآداب، والقوانين والشرائع. كلُّ هذه قد وضع القرآن أُسسها، وأرسى دعائمها، وجاءت السنة فبيَّنت وفصَّلت، وأقامت عليها بنيانا شامخًا لا تنال منه الليالي والأيام.

وقد حوى القرآن من حقائق الغيب، وحقائق النفس، وحقائق الحياة، وحقائق الاجتماع الإنساني، وبيَّن من سنن الله تعالى، ومن آياته في الأنفس والآفاق ما لا يستغني بشر عن معرفته، والاهتداء به.

وقد صاغ ذلك كلَّه في أسلوب معجز هو (نور من الكلام أو كلام من النور) لا يوصف إلا بأنه: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

(هود:١)

وصفه منزِّله بأنه (نور)، والنور من طبيعته أن يضيء ويهدي، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء:١٧٤).

كما وصفه بأنه رُوح، والرُّوح من طبيعته أن يحرِّك ويُحيي، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (الشورى:٥٢).

ولهذا كان شأن المؤمنين المهتدين بالقرآن: أن يوصفوا بالحياة وبالنورانية معًا، انتصروا على الموت، وعلى الظلام جميعًا. يقول تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾

(الأنعام:١٢٢)

• الداعية مع القرآن :

وينبغي للداعية أن يحفظ من القرآن الكريم قدر ما يستطيع ، بل يحسن بالداعية أن يحفظ القرآن كلَّه ويستظهره ، متى تيسَّرت له أسباب ذلك ، ليكون أقدر على استحضاره والاستشهاد به في كلِّ مناسبة ممكنة ، فالقرآن ذخيرة لا تنفد ، ومعين لا ينضب لإمداد الدعاة .

ومن اللازم ـ للحافظ وغير الحافظ ـ دوام التلاوة لكتاب الله بخشوع وتأمُّل وتدبُّر ، تنفتح معه أقفال القلوب ، وتنشرح الصدور لما جاء به من الحقِّ ، وتقتبس العقول منه أنوار المعرفة ، وتجتني ثمار الحقائق .

ودوام هذه التلاوة مع التفهُّم والتدبُّر ، يجعل الداعية متمكِّنا من استحضار الشواهد القرآنية ، التي يريد أن يؤيِّد بها فكرته ، ويمنحها نسبة إلهية .

بل إن مما يلزم الداعية الموفَّق أن يُحسن تلاوة القرآن بإتقان وترتيل كما أمر الله ، وأن يدرس من أحكام التجويد ما يصحِّح به قراءته ، حتى يتلوه بخشوع وتأثُّر وحزن ، فإن وجد بكاء بكى ، وإلا تباكى .

• خصائص القرآن :

وينبغي لمَن يريد أن يفهم القرآن : أن يقرأه وهو يعي خصائصه ومميزاته ، ويدركها بعقله وقلبه .

١- كلام الله :

أولى هذه الخصائص : أنه كلام الله خالصًا ، غير مشوب بأوهام البشر ، ولا بأهواء البشر ، ولا بتحريفات البشر ، وانحرافات البشر ، فهو كلُّه من الله ، مائة في المائة ، من ألفه إلى يائه . ليس لجبريل منه إلا النقل ، ولا لمحمد منه إلا التلقِّي والحفظ ، ثم التبليغ والبيان : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء:١٩٢-١٩٥) .

ومعنى هذا أنه يحمل في ثناياه علم الألوهية وحكمتها ورحمتها وقدرتها . الألوهية المتَّصفة بكلِّ كمال ، المنزَّهة عن كلِّ نقص ، ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان:٦) .

ولا غرو أن تتَّصف أخبار هذا الكتاب بالصدق الكامل ، وأحكامه بالعدل المطلق : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الأنعام:١١٥) .

وكلُّ ما في القرآن من أخبار ومواعظ ، وأوامر ونواهٍ ، وتوجيهات وتشريعات : يتجلَّى فيه الحقُّ كلُّه ، والخير كلُّه ، والجمال كلُّه ، والعدل كلُّه ، والحكمة كلُّها ، والرحمة كلُّها ، والمصلحة كلُّها ، لأنها كلَّها صادرة ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود:١) ، ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (النمل:٦) ، ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت:٤٢) ، ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (فصلت:٢) ، ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الحاقة:٤٣)

ومن هنا يختم القرآن كثيرًا من آياته التشريعية بمثل هذه الفواصل : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢١٦) ، ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٨٢) ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء:١١) ، ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة:٣٨) ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة:٢٨) .

ومن ثَمَّ لا يجوز لمخلوق ـ أيًا كان شأنه ـ أن يفرض نفسه على كلام الخالق : يفرض جهله مدَّعيًا العلم ، أو يفرض هواه زاعمًا التحرُّر ، أو يفرض نقصه متظاهرًا بالكمال . فكلمات الله هي العليا ، وهي فوق الجهالات والأهواء والأوهام .

٢- التيسير :

والخصيصة الثانية للقرآن : هي التيسير ، فهو كتاب يسَّره منزِّله سبحانه .

يسَّر تلاوته ، ويسَّر فهمه ، ويسَّر العمل به لمَن أراد ، لا يكلِّف الإنسان شططًا ، ولا يرهقه من أمره عسرًا . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر:١٧ ، ٢٢ ، ٣٢) ، ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (الدخان:٥٨) .

ويستطيع كلُّ إنسان سليم الفطرة ـ يقرأ القرآن أو يسمعه ـ أن يفهم منه ، ويتأثَّر به ، ويستقي من منهله بقدر ما يتَّسع واديه ، ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ (الرعد:١٧) .

ولهذا كان من أوصاف هذا الكتاب : الإبانة والوضوح . . . فهو كتاب (مبين) ، بل هو (نور مبين) ، قال تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة:١٥) ، ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء:١٧٤) .

والنور واضح بيِّن في نفسه ، مبيِّن موضِّح لغيره ، فكلُّ بصير لا بد أن يرى النور ، ولا يستطيع أن يرى شيئًا بغير النور .

وكلُّ هذا يوجب على الداعية : أن يعرض القرآن سهلاً ميسَّرًا كما أنزله الله ، ولا يضعه في إطار من الألغاز والمعمَّيات والتكلُّفات التي تخرجه عن طبيعته الميسَّرة ، والميسِّرة كذلك .

كما ينبغي له : ألا يكثر من القيل والقال في بيان معاني القرآن ، وألا يَغرق ـ ويُغرق الناس معه ـ في أقاويل يضرب بعضها بعضًا ، أو يكرِّر بعضها بعضًا مع اختلاف الألفاظ ، دون أن يكون وراءها ثمرة علمية ، أو يخرج منها برأي ناضج محدَّد .

٣- الإعجاز :

ومن خصائص القرآن : أنه كتاب معجِز ، أمر الله رسوله أن يتحدَّى به المشركين من العرب أن يأتوا بحديث مثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة مثله ، فغُلبوا وانقطعوا ، وسجَّل القرآن عليهم ذلك في جلاء وصراحة : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:٨٨) .

فالقرآن ـ بهذا ـ هو آية محمد العظمى ، ومعجزته الخالدة .

كانت آيات الأنبياء السابقين مادية حسية وقتية ، يؤمن بها مَن عاصرها وشاهدها ، دون مَن نأى بهم المكان ، أو تأخَّر بهم الزمان .

أما القرآن فكان آية عقلية أدبية باقية على مرِّ الدهر . وفي هذا جاء حديث البخارى ، عنه ﷺ : «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيتُ وحيا أوحى الله إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[1] ، والإعجاز القرآني له أوجه أو جوانب عديدة يتجلّى فيها . وأهم هذه الأوجه أو الجوانب التي تهم الداعية خاصة ما يلي :

(أ) **الإعجاز البياني** : وهو ما يتعلّق ببلاغة القرآن ونظمه وأسلوبه وعباراته وألفاظه ، وهو الذي وجَّه إليه القدامى همَّهم وأوسعوا القول فيه ، وأسهم في ذلك علماء الكلام مثل الباقلاَّني ، وعلماء البلاغة واللغة مثل عبد القاهر الجُرجَاني ، وعلماء التفسير مثل الطبري . . . وغيرهم .

وقام المُحْدَثون فيه بجهد مشكور مثل الرافعي في (إعجاز القرآن) ، وسيد قطب في (التصوير الفني في القرآن) و(مشاهد القيامة في القرآن) ، والدكتور بدوي في (بلاغة القرآن) ، والدكتور دراز في (النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن) ، ومحمد المبارك في (صور أدبية من القرآن) ، وبنت الشاطئ في (التفسير البيانى للقرآن) ، وغيرهم .

(ب) **الإعجاز الموضوعي** : ونعني به : أن القرآن قد جمع من صنوف الهداية والحكمة والموعظة الحسنة ، ومن وجوه الإصلاح التوجيهي والتربوي والتشريعي ، ما يُسعِد البشر أفرادا وأُسَرًا وجماعات ودُولا ، في دينهم ودنياهم ، لو أنهم اهتدوا به واتَّبعوه ، وما يعجز حكماء الأمم ومفكرو الشرق والغرب ، أن يأتوا بمثله في شموله وتوازنه وعمقه . هذا مع أن الذي أتى به رجل أُمِّي ، نشأ في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب .

ولم يهتمَّ الأولون بالتأليف في هذا اللون من ألوان الإعجاز ، وإن أشاروا إليه ، ونبَّهوا عليه ، ضمن بحوثهم عن الإعجاز .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١) ، ومسلم في الإيمان (١٥٢) ، كما رواه أحمد في المسند (٨٤٩١) ، والنسائي في الكبرى كتاب فضائل القرآن (٧٩٢٣) ، عن أبي هريرة .

وفي عصرنا بدأت العقول تتَّجه إلى تجديد التحدِّي بالقرآن من ناحية موضوعه ومحتواه ، وألَّف في ذلك العلاَّمة السيد رشيد رضا كتابه (الوحي المحمدي) ، وكتب العلاَّمة الشيخ محمد أبو زهرة عدَّة مقالات عنوانها (شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله) .

وألَّف كثيرون في موضوعات قرآنية شتَّى ، مثل (القرآن والقتال) و(القرآن والمرأة) للشيخ شلتوت ، و(الإنسان في القرآن الكريم) و(المرأة في القرآن الكريم) للعقاد ، و(التربية في القرآن) لمحمد شديد ، و(دستور الأخلاق في القرآن) للدكتور دراز ، و(الدستور القرآني) لمحمد عزت دروزة ... وغيرها وغيرها[1] .

(جـ) **الإعجاز العلمي** : ونعني به : ما يتعلَّق بإشارة القرآن في كثير من آياته إلى حقائق علمية كشف عنها العلم الحديث ، ووافقت أحدث ما انتهى إليه الكشف العلمي في هذا العصر . مع أنها كانت مجهولة في عصر النبوَّة ، وما بعده لقرون عديدة .

ومثل هذا لا يُتصوَّر أن يصدر من بشر ، لا يدري ماذا يكسب غداً ، فضلاً عما يكسب غيره ، وما تكتشفه البشرية بعد قرون وقرون . إنما يُتصوَّر أن يصدر هذا من خالق الكون ومدبِّره ، فهو القادر على أن يُودع كتابه من أسرار الوجود ما لا يعلمه غيره ، وأن يصوغ ذلك في أسلوب يتَّسع لإدراك السابقين ، وفَهم اللاحقين . وقد عني كثيرون من المعاصرين بهذا اللون من الإعجاز ، وبخاصَّة المتخصِّصون في العلوم الحديثة ، مثل الأساتذة : الدكتور محمد أحمد الغمراوي ، والدكتور محمد جمال الدين الفندي ، وعبد الرزاق نوفل ، وقبلهم الشيخ طنطاوي جوهري ، وغلا بعضهم في ذلك إلى حدِّ التكليف والمجافاة للفظ القرآن وسياقه ، وعارضهم آخرون على طول الخط ، وتوسَّط فريق ثالث . وخير الأمور الوسط .

وسنعود إلى ذلك فيما بعد .

---

(١) وكذلك كتابينا (الصبر في القرآن) و(العقل والعلم في القرآن الكريم) نشر مكتبة وهبة .

٤- الخلود :

ومن خصائص القرآن : أنه كتاب الخلود ، ليس كتاب جيل ، ولا كتاب عصر ، ولا كتاب أجيال أو أعصار محدودة ، بل هو الكتاب الخاتم للرسالة الخاتمة ، ولهذا تكفَّل الله بحفظه فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) ، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ (فصلت ٤١ ، ٤٢) .

ومن دلائل ذلك أن أربعة عشر قرنا من الزمن مرَّت على نزول هذا القرآن ولم يزل كما أنزله الله ، وكما بلَّغه محمد ﷺ ، وكما تلقَّاه أصحابه ، ومَن بعدهم جيلا إثر جيل ، محفوظا في الصدور ، متلوًّا بالألسنة ، مكتوبًا في المصاحف ، يستظهره عشرات الألوف من أبناء المسلمين ، حتى الصبيان منهم ، بل حتى الأعاجم الذين لا يعرفون لغته .

وعلى الداعية أن يقرأ القرآن بهذه الرُّوح ، وهذه الفكرة : إنه كتاب الزمن كلِّه ، فلا ينبغي أن يُحمل على ثقافة عصر خاصٍّ ، أو أفكار جيل معيَّن ، فإن الثقافات تتطوَّر ، والأفكار تتغيَّر ، والعصور والأجيال تذهب ، ويبقى كتاب الله كما أنزله الله .

٥- الشمول :

ومن خصائص القرآن كذلك : الشمول ، فكما أنه كتاب الزمن كلِّه ، هو كتاب الدين كلِّه : جمع أصول الهداية الإلهية ، والتوجيه الرباني ، في العقائد والشعائر ، والآداب والأخلاق ، كما جمع أصول التشريع الإلهي في العبادات والمعاملات ، وشئون الأسرة وعلاقات المجتمع الصغير والكبير ، المحلي والدولي ، حتى إن أطول آية فيه إنما أنزلت لتنظِّم شأنًا من شئون الحياة الاجتماعية ، وهو كتابة الدَّيْن .

وإلى جانب هذا ، هو كتاب الإنسانية كلِّها ، وكتاب الحياة كلِّها . ولهذا (جعله الله للناس) و(للعالمين) ، كما قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾(البقرة:١٨٥)، وقال سبحانه:﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (التكوير:٢٧).

فليس هو كتابا لجنس دون جنس ، ولا لوطن دون وطن ، ولا لطائفة من الناس دون أخرى .

ليس للعقليين دون العاطفيين ، ولا العكس ، وليس للروحيين دون الماديين ولا العكس ، وليس للحكّام دون المحكومين ، ولا العكس ، وليس للأغنياء دون الفقراء ، ولا للفقراء دون الأغنياء ، إنه كتاب الجميع ، ودستور الجميع .

فالقرآن دستور شامل ، وصفه منزِّله ـ وهو ربُّ كلِّ شيء ـ بأنه تبيان لكل شيء فقد خاطب الرسول المنزل عليه بقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل:٨٩) .

وقد قال الخليفة الأول : لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب الله .

فلم ينزله الله بيانًا للعقيدة أو للعبادة فقط ، فيكون كتابًا في اللاهوت . ولا بيانًا للفضائل والآداب فقط ، فيضاف إلى كتب الأخلاق . ولا بيانا للشرائع والأنظمة فحسب ، فيكون كتابا في القانون ، ولكنه كتاب يضمُّ ذلك كلَّه ، وفوق ذلك كلِّه ، في نسق فريد ، ونظم بديع .

اقرأ هاتين الآيتين في سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٣١-٢٣٢).

ترى كيف نصنِّف هاتين الآيتين؟

إنهما تتضمَّنان تشريعًا للأسرة ، وتتضمَّنان كذلك تربية وتوجيهات أخلاقية ، وإرشادات دينية ، وتذكيراً بالله واليوم الآخر ، وتقرِّران علم الله بكلِّ شيء على حين لا يعلم البشر .

فهل تُحْسَب هاتان الآيتان في التشريع ، أم في التربية ، أم في العقيدة ، أم في الآداب؟ الحقيقة أنهما في ذلك كلِّه في وقت واحد .

ومن شمول القرآن : أنه لا يخاطب العقل وحده ، ولا القلب وحده ، بل يخاطب الكِيان الإنساني كلَّه ، فيقنع العقل ، ويحرِّك القلب في وقت واحد كذلك . فإذا قرأ الإنسان أو سمع مثل هذه الآيات :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ (الانفطار:٦-٨) ، يجدها تخاطب الإنسان كلَّه : عقله ووجدانه ورُوحه ، فلا يكتفي بخطاب القلب والضمير وحده ، كما هو المعهود في كتب الدين واللاهوت قبل القرآن ، ولا يخاطب الفكر والعقل وحده ، كما هو شأن كتب الفلسفة قديما وحديثًا . إنما هو يخاطب الذات الإنسانية بكلِّ مقوِّماتها وخصائصها .

يقول المرحوم الأستاذ عباس العقاد : (يخاطب الإسلام العقل ، ولا يقصر خطابه على الضمير أو الوجدان . وفي حكمه أن النظر بالعقل هو طريق الضمير إلى الحقيقة ، وأن التفكير باب من أبواب الهداية التي يتحقَّق بها الإيمان : ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ (سبأ:٤٦) ، ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة:٢١٩) .

وما كان الشمول في العقيدة ليذهب مذهبًا أبعد وأوسع من خطاب الإنسان ، رُوحًا وجسدًا ، وعقلاً وضميرًا ، بغير بخس ولا إفراط في مَلَكَة من هذه الملكات)[١] .

وهو لا يخاطب صِنفًا واحدًا من البشر له اتجاه عقلي أو نفسي معيَّن ، مغفلا مَن عداه من الأصناف ذوي الاتجاهات المتعدِّدة .

كلا ، إنه يخاطب كلَّ الأصناف ، ويُشبع كلَّ الاتجاهات السوية .

(أ) إن طالب الحقيقة العقلية يجد في القرآن ما يُرضي منطقه ، ويأخذ بلبِّه إذا سمعه يصيح بالعقل أن ينظر ويفكِّر ، ويهيب به أن يرفض الظنَّ والخرص واتباع الهوى والتقليد ، وأن يعتمد على البرهان وحده .

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه صـ٢٤ ، الطبعة الأولى .

ويكفي أن مشتقَّات العقل ، مثل : (يعقلون) و(تعقلون) ذُكرت في القرآن (٥٨) ثمانية وخمسين مرة ، وذُكرت مشتقَّات الفكر (١٧) سبع عشرة مرَّة ، وذُكرت كلمة (الألباب) أي العقول (١٦) ست عشرة مرَّة .

وهذا غير الآيات الكثيرة التي اشتملت على كلمات ومشتقَّات أُخر مثل : النظر والاعتبار والتدبُّر والحجَّة والبرهان والنُهَى ونحو ذلك ، مما يبحث عنه طلاَّب الحقائق العقلية ، فلا يجدونه في كتاب ديني غير القرآن .

(ب) والباحث عن الحقيقة الرُّوحية ، يجد في القرآن ما يرضي ذوقه ، ويغذِّي وجدانه ، ويُشبع نهمه وتطلعاته في آفاق الرُّوح ، في مثل قصة موسى والعبد الصالح ، الذي قال الله فيه : ﴿ **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** ﴾ (الكهف:٦٥) .

(جـ) والحريص على القِيَم الأخلاقية يجد في القرآن ضالته وطلبته . وإذا كان موضوع الأخلاق هو (الخير) ، فالقرآن قد دلَّ على (الخير) ، كما هدى إلى (الحقِّ) ، وقد جعل فعل الخير إحدى شُعب ثلاث لمهمَّة المسلم : ﴿ **وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (الحج:٧٧) ، ولكنه لم يكتفِ من المسلم بفعل الخير ،بل طلب أن يدعو إليه ويدلَّ عليه: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ** ﴾ (آل عمران:١٠٤)

والأخلاق في القرآن تحتلُّ مساحة عريضة لا يتَّسع المقام للحديث عنها ، ونوصي بالرجوع إلى (دستور الأخلاق في القرآن) للعلاَّمة الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله .

(د) وعاشق القِيَم الجمالية يجد في القرآن ما ينمِّي حاسَّته الجمالية ، ويغذِّي شعوره الفني ، وذلك بما لفت إليه القرآن الأنظار من الاستمتاع بجمال الطبيعة : ﴿ **وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ** ﴾(الحجر:١٦) ، ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ** ﴾ (الملك:٥)، وجمال النبات : ﴿ **وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ (ق:٧) ، ﴿ **فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ** ﴾ (النمل:٦٠) ، وجمال الحيوانات : ﴿ **وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ** ﴾ (النحل:٦) ، وجمال الإنسان : ﴿ **وَصَوَّرَكُمْ**

﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (التغابن:٣)، وجمال المخلوقات كلّها : ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾(النمل:٨٨).

ووراء ذلك كلّه ما احتواه أسلوب القرآن ذاته من جمال معجِز في شكله ومضمونه .

• تنبيهات للداعية في المجال القرآني :

وأودُّ أن أنبِّه الداعية الذي يريد أن يعيش مع القرآن ، ليأخذ منه زادًا لقلبه ، ويقبس منه نورًا لعقله ، ويستمد منه ريًّا لرُوحه ، ثم يمدُّ الآخرين بعد ذلك من فيض هذا الرِّي ، وذاك النور ، وذلك الزاد ، إلى عدَّة أمور :

• جمع الآيات في الموضوع الواحد وتصنيفها :

فعلى الداعية إذا أراد أن يتحدَّث في موضوع ما ـ محاضرًا أو مدرسًا أو خطيبًا أو كاتبًا ـ أن يجمع الآيات المتعلِّقة بموضوعه ، ويعمل على تصنيفها بما يلائم الغرض ، ويوضِّح نظرة القرآن إلى الموضوع .

وينبغي للداعية المتبصِّر هنا أن ينظر نظرتين :

إحداهما : تتعلَّق بالألفاظ القرآنية المتعلِّقة بموضوعه ، وهذه يفيد منها ـ إلى حدٍّ كبير ـ مراجعة المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ولا سيما لمَن لم يكن مستظهرًا القرآن .

والثانية : تتعلَّق بالمعاني المتَّصلة بموضوعه ، وهذه تحتاج إلى بصيرة وفِطنة وحسن إدراك لما له صلة بالموضوع ، وإن لم يَرِد بنفس اللفظ والعبارة .

والمهم في هذا وذاك هو حسن التصنيف والتقسيم الذي يوضِّح المعالم ، ويبرز المقوِّمات والخصائص ، ويبيِّن الأهداف والآثار .

لنأخذ مثلاً لذلك ، فبالمثال يتَّضح المقال .

إذا أردنا الحديث عن القرآن والعلم ، فإننا نجد أنفسنا أمام حشد هائل من الآيات يبلغ المئات . فلهذا نكتفي بأخذ بعضها وتصنيفها أو وضع عناوين لها كما يلي :

obeikandl.com

● **أولو العلم قرناء الملائكة :**

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾(آل عمران:١٨)، فبدأ سبحانه بنفسه ، وثنَّى بملائكته ، وثلَّث بأولي العلم ، مستشهدًا بهم على تفرُّده بالألوهية .

● **العلم يرفع أهله عن غيرهم :**

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر:٩) ، ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (المجادلة:١١) .

● **العلم أساس خشية الله :**

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ (فاطر:٢٨) .

● **الواجب على الجاهل أن يتَّبع العالم ولو كان أصغر منه :**

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾

(مريم:٤٣)

● **قد يدرك الأدنى من العلم ما لا يدرك الأعلى :**

في قصة سليمان حين عزم على معاقبة الهدهد الغائب فجاء يخبره : ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (النمل:٢٢) .

وفي قصة ابني آدم حيث تعلَّم الإنسان من الغراب : ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ (المائدة:٣١) .

● **التعليم يرفع قدر المتعلِّم ولو كان كلبًا :**

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ (المائدة:٤) ، وبهذا امتاز الكلب المعلَّم على كلِّ كلب آخر .

obeikandl.com

● **الأمر بالرجوع إلى أهل العلم :**

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل:٤٣) ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء:٥٩) ، فُسِّرت (أولو الأمر) في هذه الآية بالعلماء ، كما فُسِّرت بالأمراء ، ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ (النساء:٨٣) .

ويشير القرآن إلى أن الخبير بالشيء هو القادر على الإنباء بحقيقته - دون شطط أو قصور ، وذلك في قوله : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (فاطر:١٤) . ومن هنا يجب أن يُسئل الخبير دون غيره : ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (الفرقان:٥٩) .

● **العلم بحر لا ساحل له :**

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا ﴾ قَلِيلاً (الإسراء:٨٥) .

● **الازدياد في العلم مطلوب :**

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (طه:١١٤) ، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾(يوسف:٧٦).

● **الأنبياء يطلبون العلم عند مَن هم دونهم :**

في قصة موسى وفتاه قال تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ (الكهف:٦٥ ، ٦٦) ، وموسى أفضل خلق الله في زمنه بلا نزاع .

● **الرحلة في طلب العلم :**

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ (الكهف:٦٠ ، ٦١) ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ ﴾ بِهَا (الحج:٤٦) .

إلى عشرات أخرى من الآيات تتعلَّق بموضوع العلم ، يجدها مَن يعيش مع القرآن.

ويستطيع الداعية المتمرِّس المتدبِّر لكتاب الله أن يخصِّص لنفسه سجلاً أو كشكولاً يدوِّن فيه الموضوعات القرآنية،وما يتعلَّق بها من آيات،حسبما تهديه إليه بصيرته ووعيه ، وسيجد نفسه أمام عشرات ، بل مئات من الموضوعات الحيَّة الدسمة.

obeikandi.com

وعليه بعد جمعها أن يحرص على تصنيفها بقدر ما يفتح الله عليه ، وسيجد عنده بعد زمن ذخيرة من القرآن لا تنفد ، وكنزًا من أسرار الحقِّ لا يفنى .

● العناية بالقصص القرآني :

ومما ينبغي للداعية الالتفات إليه ، والعناية به : القصص القرآني ، وما اشتمل عليه من عبر وعظات وأسرار وحِكَم بالغة .

وطريقة القرآن في سرد قصص الماضين لا تعتمد على ذكر التفصيلات ، كذكر أسماء الأشخاص والبلدان والتواريخ ونحوها ، إنما يهتمُّ برؤوس العِبَر ، ورسم ملامح الشخصيات التاريخية ، واتجاهات الأحداث ونتائجها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف:١١١) .

وعند سرد القصة نجد القرآن الكريم يضمِّنها كثيرًا من الحقائق والأسرار العلمية والتوجيهية والتشريعية ، لتنفذ إلى النفس والعقل عن طريق غير مباشر .

فإذا أردنا أن نعرف مثلاً مكانة العلم في القرآن ، فإننا نستطيع أن نجد ذلك في آيات كثيرة مباشرة كما أسلفنا ، وأن نجده كذلك بصورة واضحة في آيات القصص القرآني ، وإن كانت غير مباشرة . نجد ذلك في أربعة مواضع من القرآن .

الأولى : في قصة آدم حين قال الله للملائكة : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠) ، واستغرابهم لذلك في أوَّل الأمر ، ثم تسليمهم لآدم بعد أن أثبت الاختيار الإلهي تفوُّقه العلمي قال : ﴿ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة:٣٣) .

وهكذا أشار القرآن إلى أن العلم هو المرشَّح الأول للإنسان ، ليقوم بوظيفة الخلافة في الأرض .

الثانية : في قصة يوسف عليه السلام ، وما فيها من استخدام (التخطيط) في السياسة الاقتصادية والتموينية للدولة ، كما هو واضح في الخطَّة الخمس عشرية التي

obeikandl.com

وضعها يوسف عليه السلام ، وطبَّقها بنجاح ، عاد خيره على أهل مصر والمناطق المجاورة لها ، في حين يظنُّ بعض الناس أن التخطيط ينافي الدين والتوكُّل على الله .

الثالثة : في قصة سليمان مع بلقيس ملكة سبأ ، حيث استطاع أحد رجال سليمان أن يأتيه بعرشها قبل أن يرتدَّ إليه طرفه بواسطة علم عنده : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ (النمل:٤٠) ، وكان سليمان في الشام وعرش بلقيس في اليمن .

الرابعة : في قصة ذي القرنين وبنائه السد العظيم من الحديد ، مخلوطًا بالنحاس المُذاب ، وهو ما أثبت العلم الحديث أنه يعطي الحديد قوَّة ومتانة أكبر : ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ (الكهف:٩٦-٩٧)

ومثل ذلك إذا أحببنا أن نتعرَّف على مكانة الإيمان في نظر القرآن ، فلا ريب أننا سنجد أمامنا عشرات من الآيات الكريمة المباشرة ، تحدِّثنا عن الإيمان وأثره في حياة الإنسان ، ولكننا نستطيع أن ندرك الإيمان بصورة أقوى وأبلغ إذا نحن تأمَّلنا عددًا من قصص القرآن .

نجد في القرآن قصة الشباب حين يؤمن ، وماذا يصنع به الإيمان ، وذلك في قصة فتية أهل الكهف الذين واجهوا جمود المنكرين ، وطغيان المتجبِّرين : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ (الكهف:١٣-١٥) .

ونجد في القرآن قصَّة المرأة حين تؤمن ، وإن كانت زوجة لفاجر كفَّار ، أو متكبِّر جبَّار . وذلك في قصة امرأة فرعون ، التي لم تبالِ بملك فرعون ، ولم يغرَّها منه وعدًا أو يثنيها وعيد : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ

رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (التحريم:١١) .

ونجد في القرآن قصة عوامِّ الناس حين يؤمنون ، وكيف يغيِّرهم الإيمان وينشئهم خلقًا جديدًا ، ويفجِّر فيهم طاقات نفسية عجيبة كانت دفينة مخبوءة حتى أبرزها الإيمان ، وذلك في قصة سحرة فرعون ، الذين تبيَّن لهم الحقُّ على يد موسى فآمنوا به ، متحدِّين جبروت فرعون وتهديده : ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (الأعراف:١٢٠-١٢٦) .

● العناية بالنماذج القرآنية :

وعلى الداعية أن يعنى بالنماذج القرآنية ، التي تصوِّر لنا الشخصية الإنسانية في مختلف المجالات والأحوال .

ومن هذه النماذج القرآنية أذكر عدَّة أمثلة :

(أ) نموذج الغنى الشاكر ، في شخصية سليمان الذي قال عندما سمع كلام النملة وفهم عنها : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ (النمل:١٩) ، كما قال عندما أُحضر له عرش بلقيس : ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل:٤٠). والقصة مفصَّلة في سورة النمل (الآيات:١٦-٤٤) .

(ب) نموذج الحاكم أو الملك العادل ، الذي لم يلهه سَعة ملكه عن عبادة ربِّه ، ورعاية شعبه ، في شخصية ذي القرنين ، الذي بلغ بفتوحه مطلع الشمس

ومغربها ، ولكنه ظلَّ متمسِّكا بالعدل : يكافئ المحسن ، ويعاقب المسيء ، ويقاوم المفسدين في الأرض ، ويقيم التحصينات والسدود الضخمة مستعينا بالله أولا ، ثم بجهود الشعوب آخرا . الآيات من سورة الكهف (٨٣-٩٨) .

(جـ) نموذج المبتلى الصابر على البلاء ، والراضي بالقضاء ، في شخصية أيوب : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِراً ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (ص:٤١-٤٤) .

(د) نموذج الشاب المتعفِّف عن الحرام ، برغم فتوَّته وجماله ونضرة شبابه ، وقوة دواعي الإغراء من حوله ، وإحاطة أسبابها به ، في شخصية يوسف الصديق : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(يوسف:٢٣-٣٣)

(هـ) نموذج الشاب الممتثل لأمر الله ، وإن كان فيه تقديم عنقه قربانًا إلى الله ، في شخصية الذبيح إسماعيل بن إبراهيم ، حيث قال له أبوه لما بلغ معه السعي : ﴿ يَٰبُنَيَّ قَالَ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ الآيات من سورة (الصافات:١٠٠-١٠٩).

(و) نموذج المؤمن الذي يكتم إيمانه لمصلحة ، فإذا جاء وقت الحاجة برز بإيمانه يدافع عن الحقِّ ، ويقاوم الباطل ، ويجادل بالحكمة ويؤثِّر بالموعظة ، ويدعو على بصيرة ، في شخصية مؤمن آل فرعون : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ (غافر:٢٨-٣٤) .

(ز) نموذج الداعية صاحب الرسالة ، يُحكم عليه بالسجن ظلمًا ، فلا ينسيه ظلم السجن وظلمته حقَّ دعوته عليه ، فينتهز كلَّ فرصة لدعوة السجناء إلى توحيد الله واطِّراح الوثنية المخرِّفة ، في شخصية يوسف بن يعقوب : ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ الآيات من سورة (يوسف:٣٧-٤٠)

(ح) نموذج الابن المؤمن وأبوه كافر ، وكيف يتلطَّف معه في إسماع الدعوة وتبليغ الرسالة ، وذلك في شخصية إبراهيم وأبيه : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ الآيات من سورة (مريم:٤١-٤٨) .

(ط) نموذج الأب المؤمن وابنه كافر ، وكيف حاول الأب إنقاذه فلم يُفلح ، وكيف حاول أن يشفع له عند ربِّه فعوتب في ذلك أشدَّ العتاب ، وذلك في شخصية نوح وابنه الكافر ، سورة هود (لآيات:٤٢-٤٧) .

(ي) نموذج المرأة المؤمنة وزوجها كافر متعنِّت بل متألِّه ، وذلك في شخصية آسية امرأة فرعون وزوجها الطاغية الجبار الذي حشر فنادى فقال : أنا ربكم الأعلى ، فلم يطمعها ملكه ، ولم يخفها جبروته ، ولم تعبأ بوعده ووعيده ، واتَّجهت إلى ربِّها قائلة : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (التحريم:١١) .

(ك) نموذج المرأة الكافرة وزوجها مؤمن ، مثل امرأة نوح وامرأة لوط : ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ (التحريم:١٠) .

(ل) نموذج الإنسان الخيِّر المسالم ، الذي يقابل العدوان بالتقوى ، والسيئة بالحسنة ، والشرَّ بالخير ، في شخصية ابن آدم الذي تسمِّيه الإسرائيليات (هابيل) ، والذي هدَّده أخوه بالقتل ، فأجابه : ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (المائدة:٢٨ ، ٢٩) .

(م) نموذج الإنسان الشرير ، الذي يعتدي على أخيه ويلغ في دمه دون جُرم جناه ، لا يردعه دين ولا خلق ولا رحم ، في شخصية ابن آدم المسمَّى (قابيل) والذي لم يردعه عن قتل أخيه ـ ابن أمه وأبيه ـ موقفه الإنساني المثالى منه : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (المائدة:٣٠) .

(ن) نموذج الشعب الجبان في وقت الكريهة ، الفرَّار في ساعة الشدَّة ، المتمرِّد على أنبيائه ، في شخصية الشعب الإسرائيلى حين قال له رسوله ومحرِّره ومَن أنقذه الله على يديه ، موسى عليه السلام : ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ (المائدة:٢١-٢٤) .

(ص) نموذج الأمة التي لا تحترم نعمة الله ، ولا تقوم بحقِّ شكرها ، فيسلبها الله منها ، وذلك في شخصية قوم سبأ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ (سبأ:١٥-١٧) .

● حسن الاستدلال بآيات القرآن :

ومما ينبغي للداعية أن يتحرَّاه ويحرص عليه ويُحْكِمه : حسن الاستدلال بالقرآن وآياته على ما يريد تقريره ، أو تثبيته من أحكام وتعاليم وأفكار . فإنه إذا أحسن الاستدلال بالنصِّ القرآنى ، ووضعه في موضعه ، أزاح كلَّ شبهة ، وقطع كلَّ تعلَّة ، وأخرس كلَّ معارض ، فلا دليل بعد القرآن ، ولا حديث بعد كلام الله : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (النساء:٨٧) ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ قِيلًا (النساء:١٢٢)، ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة:٥٠) .

ولهذا لا يملك المؤمن أمام الدليل القرآني إلا أن يقول : آمنا وصدقنا . أو : سمعنا وأطعنا . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ

وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب:٣٦) .

أُدخل رجل على المأمون ، كان يمشي في الناس فيأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، دون أن يكون مأموراً من قبل الخليفة . فقال له المأمون : لم تأمر وتنهى ، وقد جعل الله ذلك إلينا ، ونحن الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (الحج:٤١) . فقال الرجل : صدقتَ يا أمير المؤمنين ، أنت كما وصفتَ نفسك من السلطان والتمكُّن ، غير أنَّا أولياؤك وأعوانك فيه ـ ولا ينكر ذلك إلا من جهل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ـ قال الله تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾(التوبة:٧١). وقال رسول الله ﷺ :« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا »[١]. فأعجب المأمون بكلامه ، وسُرَّ به وقال : مثلك يجوز أن يأمر بالمعروف ، فامضِ على ما كنتَ عليه بأمرنا وعن رأينا[٢] .

وهكذا حين أحسن الرجل الاستشهاد بالقرآن والسنة ، انقطعت حجَّة الخليفة ، ولم يجد بُدًّا من إقرار الرجل على ما هو عليه .

وفي مقابل ذلك ، دخل واعظ على المأمون فوعظه ، وعنَّف له في القول ، فقال المأمون : يا رجل ، ارفق ، فإن الله بعث مَن هو خير منك إلى من هو شرٌّ مني ، وأمره بالرفق : بعث موسى وهارون إلى فرعون ، فأوصاهما بقوله : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (طه:٤٤)[٣] .

وهنا كان موقف المأمون هو الأقوى ، لأن الدليل القرآني معه .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٦) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥) ، كما رواه أحمد في المسند (١٩٦٢٤) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٨) ، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٠) ، عن أبي موسى الأشعري .

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء (٢/٣١٧) .

(٣) ذكره الغزالي في الإحياء (٢/٣٣٤) .

والواجب على الداعية أن يراعيه في هذا المقام : أن يستدلَّ بالمتَّفق عليه ، لا بالمحتمل والمختلف فيه . فإن الدليل الذي يتطرَّق إليه الاحتمال ، يسقط الاستدلال به .

فعند الحديث عن شمول القرآن ـ مثلاً ـ يستدلُّ بعض الناس بقوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن ﴾ شَيْءٍ (الأنعام:٣٨) .

مع أن الكتاب في الآية يحتمل أن يكون هو القرآن ، فيكون الاستدلال صحيحًا ، ويحتمل أن يكون المراد به (اللوح المحفوظ) ، الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق ، كما قي قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (يس:١٢) ، ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴾ (الأحزاب:٦) ، وغيرها من الآيات . والأولى هنا أن يستدلَّ على شمول القرآن بقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(النحل:٨٩)، فهي صريحة في الدلالة على المراد.

كما أن على الداعية : أن يتجنب الاستدلال بما ليس بدليل .

مثال ذلك : أن بعض الناس يستدلُّون على أن من ثمار تقوى الله ، أن يعلمه ما لم يكن يعلم ، بقوله تعالى في ختام آية المداينة من سورة البقرة : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة:٢٨٢) .

والحقُّ أن الآية لا تدلُّ على هذه الدعوى ، لأنها ليست أمرًا وجوابًا ، فإنما كان يصحُّ ذلك لو كان لفظها : (واتقوا الله يعلمكم الله) . أما الآية أو هذه الفقرة منها ، فإنها تتضمَّن أمرًا بتقوى الله ، كما هي سنة القرآن حين يقرن الأوامر والنواهي بالتقوى . ثم بعد ذلك قال : ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، أي هذه الأوامر والأحكام ، كما قال في آية أخرى : ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ (النساء:١٧٦) .

أما الاستدلال على الدعوى المذكورة فيمكن بقوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (الأنفال:٢٩) ، أي نورًا تفرِّقون به بين الحقِّ والباطل .

ومثلها قوله في سورة الحديد : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ (الحديد:٢٨) .

بل يمكن أن يستدلَّ بعموم قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ (الطلاق:٢) ، لأنه يشمل المخرج من الشبهات والمتشابهات .

• الحذر والتحذير من سوء التأويل وتحريف الكلم عن مواضعه :

ويجب على الداعية أن يَحذر ويُحذِّر من الانحراف والتحريف ، وسوء التأويل لآيات الكتاب ، وحملها على معانٍ تُخرجها عما أراد الله بها . وهذا نوع من التحريف الذي ذمَّ الله عليه أهل الكتابِ ، فقد حرَّفوا كتبهم لفظيًّا بالزيادة والنقصان ، ومعنويًّا بسوء التأويل . أما القرآن فهو محفوظ في الصدور والمصاحف ، ولا سبيل إلى تحريفه تحريفًا لفظيًّا ، ولكن قد يدخل في تفسيره سوء التأويل ، وهو التحريف المعنوي ، وأيضًا الرأي المذموم الذي جاء الحديث يتوعَّد مَن فسَّر به القرآن[1] .

وفي عصرنا ـ كما في عصور سابقة ـ كثرت أسباب الانحراف والتحريف ، ومن هذه الأسباب :

١- **إخضاع النصوص للواقع الزمني** : وإن كان مخالفًا للإسلام ، ومحاولة أخذها من تلابيبها وتأويلها تأويلاً بعيدًا عن الظاهر ، لتبرير هذا الواقع بإعطائه سندًا من الشرع .

كما رأينا في محاولات تسويغ نظام الفائدة في البنوك عند سطوة الرأسمالية في البلاد الإسلامية ، ومثلها محاولات تبرير التأميم والمصادرة للملكيات المشروعة بعد ذلك أيام سطوة الاشتراكية .

ومن ذلك الانحراف في تفسير الآيات والأحاديث عن مدلولاتها الظاهرة الواضحة إلى تأويلات بعيدة غير سائغة ولا لائقة ، ولا منسجمة مع السباق والسياق ، اتِّباعًا

---

(١) إشارة إلى حديث : «مَن قال في القرآن برأيه ، فليتبوأ مقعده من النار» . رواه الترمذي في تفسير القرآن (٢٩٥١) ، وقال : حديث حسن ، والنسائي في الكبرى كتاب فضائل القرآن (٨٠٣٠) ، عن ابن عباس .

لفكرة شائعة أو نظرية سائدة ، لم تبلغ مبلغ الحقائق العلمية . كما وقع في ذلك بعض العلماء المعاصرين ، وغيرهم من الكاتبين المتسرِّعين .

٢- تبنِّي مذهب أو فكرة أو اتجاه سابق ، ثم اتخاذ النصوص بعد ذلك دليلاً له : وهو ما عبَّر عنه بعض علمائنا : أن يعتقد ثم يستدلَّ ، مع أن المنهج السليم أن يستدلَّ ثم يعتقد .

وهذا ما رأيناه لدى كثير من علماء الكلام والفلاسفة والفرق المختلفة ، والمقلِّدين في الفقه ، فقد جعلوا مذاهبهم أصلاً ، ثم شدُّوا النصوص شدًّا لتأييد المذهب ، وإن كان في ذلك التكلُّف والتمحُّل ، وإن لم يجدوا مجالاً للتأويل لجأوا إلى القول بالنسخ ، مع أن النسخ لا يثبت بالاحتمال .

وقد رأينا ابن سينا وأمثاله من كبار الفلاسفة في العصور الإسلامية ، اعتقدوا صحَّة ما ذهب إليه أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان في الإلهيات والطبيعيات وغيرها ، فلما اصطدم ذلك بآيات القرآن الوفيرة ، طفقوا يؤولونها تأويلات ترفضها اللغة ، كما يرفضها الدين ، حتى كفَّرهم الغزالي ومَن بعده في ثلاث مسائل معروفة ، أنكروا فيها ما هو معلوم من الدين بالضرورة .

٣- تجزئة النصوص وتفكيكها ، وعدم ربط بعضها ببعض : مع أن الواجب أن يؤخذ في القضية المطروحة ، كلُّ ما ورد فيها من نصوص ، والتوفيق بين بعضها وبعض ، لمعرفة المعنى المراد من مجموعها .

فمَن أراد أن يعرف حكم القرآن في الربا فلا يسوغ له أن يقتصر على قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ ﴾ (آل عمران:١٣٠) ، دون أن يضمَّ إليها قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٧٨-٢٧٩) ، فدلَّ على أن ما زاد على رأس المال فهو ربا ، قليلاً كان أو كثيرًا ، وإذن تكون عبارة : ﴿ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ ﴾ ، وصفًا لبيان الواقع ، وليس قيدًا حقيقيًا كما تقول للتجَّار

الجشعين : لا تحتكروا الضروريات لتربحوا مائتين في المائة ، فهذا بيان لواقعهم ، وليس معناه أنهم إذا احتكروا الطعام ونحوه ليربحوا مائة أو خمسين في المائة أو أقل أو أكثر كان ذلك حلالاً .

٤- **اتباع المتشابهات وترك المحكمات** : وهذا أصل من أصول الزيغ والضلال ، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (آل عمران:٧) ، بيَّنت الآية الكريمة أن من آيات الكتاب محكمات ، أي قاطعات أو واضحات الدلالة لمَن تأمَّلها ، وهنَّ أمُّ الكتاب ، أي أساسه ومعظمه وأكثره ، ومعنى هذا : أن الفرع يجب أن يُردَّ إلى الأصل أو الأم ، والأقل يجب أن يفسَّر تبعًا للأكثر . ولكن الضالين الذين في قلوبهم زيغ وانحراف ، يجرون وراء المتشابهات ، متمسِّكين بما يظهر لهم منها ، موافقًا لأهوائهم . ولو أنهم أنصفوا فردُّوا المتشابهات إلى المحكمات ، وبعبارة أخرى : (ردوا المحتملات إلى القواطع والبيِّنات) لَلاَح لهم الحقُّ واضحًا وضوح الصبح لذي عينين .

وإذا تتبَّعنا الفرق المنحرفة التي خالفت عن صراط السنة والجماعة منذ صدور الإسلام إلى اليوم ، وجدنا من أهم وأبرز أسباب انحرافها : اتباع المتشابهات وترك الأصول المحكمات .

وما من بدعة من البدع المارقة إلا ولأهلها شُبَه يتَّكئون عليها من هذه المتشابهات ، حتى إن القائلين بوحدة الوجود ، وهم ـ كما قال صاحب (إيثار الحق على الخلق) ـ أشنع المبتدعين بدعة وأبعدهم عن القرآن والسنة وأفحشهم قولاً . ومع ذلك يحتجون لبدعتهم وضلالهم بمتشابهات من القرآن والحديث ، فيذكرون مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ (الفتح:١٠) ، ﴿ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال:١٧)[1] .

---

(١) انظر : إيثار الحق على الخلق لابن الوزير صـ٢٩٣ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت .

وبحديث : «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل» متفق عليه[1] .

وأغفل هؤلاء أن الدين كلَّه بقرآنه وسنته ، بل الأديان السماوية كلها تنادي بأن في الوجود ربًّا ومربوبًا ، وخالقًا ومخلوقًا ، وكونًا ومكوِّنا ، فثنائية الوجود من بدهيات الدين وضرورياته التي لا تحتاج إلى استدلال وإقامة برهان . بل إن النصارى حاولوا ويحاولون أن يجدوا في متشابه القرآن ما يسند دعواهم بألوهية المسيح أو بنوَّته لله ، من مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ (النساء:١٧١) ، تاركين المحكم من مثل قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (الزخرف:٥٩) ، ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ (المائدة:٧٥) ، ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ (المائدة:١١٧) ، ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ (المائدة:٧٣) ، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة:٧٢) .

والمقصود أن اتِّباع المتشابه هو دأب الزائغين من قبل ومن بعد .

● علوم القرآن :

ومما يلزم الداعية معرفته : علوم القرآن ، وهي بمثابة مدخل لا بد منه لدراسة القرآن ذاته . وقد أُلِّفت فيها كتب جامعة قديما وحديثا . فمن كتب القدماء : (البرهان في علوم القرآن) للإمام الزركشي ، و(الإتقان في علوم القرآن) للحافظ السيوطي . ومن الكتب الحديثة : (مناهل العرفان في علوم القرآن) للزرقاني و(مباحث في علوم القرآن) للدكتور صبحي الصالح ومثله للشيخ مناع القطان ، وكثير غيرها مما أُلف لطلاب الكليات الإسلامية .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٤١) ، ومسلم في الشعر (٢٢٥٦) ، كما رواه أحمد في المسند (٧٣٨٣) ، والترمذي في الأدب (٢٨٤٩) ، وابن ماجه في الأدب (٣٧٥٧) ، عن أبي هريرة .

كما أُلفت كتب قديمة وحديثة في بعض أنواع من علوم القرآن ، مثل الكتب التي تبحث في (إعجاز القرآن) ، وقد أشرنا إلى بعضها فيما سبق . أو ما يتعلق بالتفسير مثل (رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية في أصول التفسير) و(التفسير والمفسرون) للشيخ الدكتور الذهبي ، و(النسخ في القرآن الكريم) للدكتور مصطفى زيد . وما كتب حول (ترجمة القرآن) بين المؤيدين والمعارضين ، مثل الشيخ المراغي ومحمد فريد والشيخ محمد سليمان ، وغيرهم .

● تفسير القرآن :

ولا ريب أن أهمَّ علوم القرآن هو (التفسير) ، الذي يعين على فَهم المراد من كلام الله تعالى بقدر الطاقة البشرية .

وقد دوِّن في تفسير القرآن مئات ومئات من الكتب منها ما فُقد ، ومنها ما لم يُفقد ، وهذا الذي بقي منه ما طُبع ومنه ما يزال مخطوطًا .

من هذه الكتب ما يذهب مذهب الرواية ، ويسمَّى (التفسير بالمأثور) ، ومنها ما ينحو نحو الدراية ، ويسمَّى (التفسير بالرأي) ، ولكلٍّ منها خصائصه ومميزاته وعيوبه . فبما يغلب على كتب (التفسير المأثور) : وجود الإسرائيليات فيها ، وكذلك الموضوع والضعيف من الروايات .

ومما يغلب على كتب (التفسير بالرأي) : غلبة الطابع الشخصي أو المذهبي أو الزمني على مؤلِّفها ، حتى إن التفسير ليتلوَّن بلون صاحبه ، وينطبع بطابع عصره وثقافته واتجاهه إلى حدٍّ كبير . تفسير العالم اللغوي والنحوي غير تفسير الفقيه ، وهما غير تفسير المتكلِّم ، وتفسير المعتزلي غير تفسير الأشعري ، وتفسير هؤلاء جميعًا غير تفسير الصوفي .

ولا يحسن بالداعية أن يكتفي بكتاب واحد منها ويهمل سائرها ، فإن لكلٍّ منه مزيَّة لا توجد ـ غالبًا ـ عند غيره ، فالأولى أن ينهل منها ما استطاع وأن يقبس من

كلٍّ كتاب خير ما فيه ، ولبَّ ما يتميَّز به ، ويحترز مما فيه من أهواء أو شطحات . فتفسير مثل (الكشاف) للزمخشري - رغم نزعته الاعتزالية - لا يحسن الإعراض عنه ، بل ينبغي الاستفادة من مباحثه البلاغية وغيرها ، وكذلك فعل أهل السنة من قديم ،لم يمنعهم اعتزاله أن ينتفعوا به ، فمنهم مَن خرَّج أحاديثه كالحافظ ابن حجر ، ومنهم مَن تعقَّبه في مواضع الاعتزال كابن المُنيِّر .

فإن كان ولا بد من التخيُّر والانتقاء ، فإني أُوثر في التفسير كتابي ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) ، وابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) ، وإن كان ولا بد من أحدهما : فتفسير ابن كثير ، لأنه جمع خلاصة ابن جرير مع زيادة تنقيح وتهذيب ، وحسن ترجيح وتعقيب . وقد قال فيه السيوطي في طبقات الحفاظ والزرقاني في شرح المواهب : إنه لم يؤلَّف على نمطه مثله[1] .

وفي رأيي أنه تفسير رواية ودراية معًا .

وأما كتب التفسير بالرأي فيؤخذ منها ويُترك ، ولكلٍّ منها مزاياه وعيوبه . ومن أمثلها في نظري تفسير ابن عطية والقرطبي .

أما تفاسير المُحْدَثين ، فهي كثيرة منها : تفسير القاسمي ، وتفسير المنار ، وتفسير ابن عاشور ، وتفسير ابن باديس ، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ، والتفسير الحديث لدروزة ، وتفسير الأجزاء العشرة الأولى لشلتوت ، وغيرها .

ولا يستغني الداعية عن الاستفادة منها ، مع الحذر مما قد يكون فيها من غلوٍّ أو تقصير ، وكلُّ بشر غير معصوم يؤخذ من كلامه ويترك .

وصايا لقارئ كتب التفسير :

ولا أنسى أن أهمس في أذن الداعية أو طالب الدعوة ، الذي يريد أن يطالع كتب التفسير ، ويغترف من معينها ، بعدَّة وصايا ، استفدتُها من قراءاتي وتجربتي .

---

(١) طبقات الحفاظ للسيوطي صـ٥٣٠ ، تحقيق د . علي محمد عمر ، نشر مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م .

obeikandl.com

١- الاهتمام بلُباب التفسير :

أما وصيَّتي الأولى ، فهي الإعراض عن الحشو والفضول والاستطراد ، الذي انتفخت به بطون كتب التفسير ، من الاستغراق في المباحث اللفظية ، أو المسائل النحوية ، والنكات البلاغية ، والتطويل في المجادلات الكلامية ، والخلافات الفقهية ، وغير ذلك من ألوان الثقافات التي شغلت حيِّزًا ضخمًا من كتب التفسير ، حتى حجبت قارئها عن إدراك أسرار كلام الله تعالى ، وهو الذي أُلِّفت كتب التفسير من أجله . وهذا ما جعل أبا حيَّان يقول عن التفسير الكبير أو (مفاتيح الغيب) للإمام الرازي كلمته المشهورة : جمع في كتابه في التفسير أشياء كثيرة طويلة ، لا حاجة بها في علم التفسير ، ولذلك حُكي عن بعض المتطرفين أنه قال : فيه كلُّ شيء إلا التفسير(١)!

ولا ريب أن هذه الكلمة غلوٌّ من قائلها ، ففي الكتاب لفتات تفسيرية رائعة لا تجدها في غيره .

ولكن استطراداته الطويلة المديدة في شتَّى العلوم ، ومجادلاته الواسعة مع أرباب المذاهب الكلامية والفقهية ، قلَّلت من الإفادة بالكتاب .

ومن ثم تجب العناية بلباب التفسير : أي ببيان المراد من كلام الله تعالى قبل الجري وراء القيل والقال ، وإضاعة الجهد والوقت فيما لا طائل تحته ، ولا ثمرة تجنى من ورائه .

وكثيرًا ما يذكر بعض العلماء في الآية عشرة أقوال ـ أو أقل أو أكثر ـ لزيد وعمرو وبكر من الناس . دون أن يبيِّن أيَّ قول منها هو المعتمد ، وقد يختار قولاً منها دون أن يوضِّح سرَّ اختياره وترجيحه .

---

(١) تفسير البحر المحيط (٣٤١/١) ، طبعة مكتبة النصر الحديثة ، الرياض . وكذلك قال السيد رشيد رضا عن تفسير (الجواهر) للشيخ طنطاوي جوهري ، لكثرة استطراداته وتوغلاته في العلوم الحديثة المناسبة وغير المناسبة أكثر مما اهتم بالتفسير ذاته . انظر : تفسير المنار (٧/١) طبعة دار المنار ، مصر .

وإذا كان هذا مطلوبًا من كلِّ عالم أو طالب علم ، فهو ألزم ما يطلب للدعاة إلى الله . فالداعية لا يؤثِّر في عقول الناس وعواطفهم بالمباحث النحوية والبلاغية والمجادلات الكلامية والفقهية ، وإنما يؤثِّر فيهم بما يجلِّيه من أسرار الحقِّ وأنوار الهداية في كلمات الله .

ولهذا يجب على الداعية أن يلتفت إلى ما في التفسير من تعقيبات ذوي القلوب الحيَّة ، مما قد لا يُعدُّ من (مادة التفسير) ، وإن كان يُعدُّ من (رُوح التفسير) مثال ذلك ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (التوبة:١١١) ، فالمعنى واضح ، وهو أنه تعالى عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم ـ إذا بذلوها في سبيله ـ بالجنة ، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضَّل به على عباده المطيعين له .

ولكن لبعض المفسِّرين من أرباب البصائر هنا لفتات إشراقية ، تحرِّك القلوب الهامدة ، وتُحيي العزائم الميِّتة ، بما فيها من حرارة الصدق ، وصفاء الإخلاص . من ذلك قول الحسن البصري وقتادة تعليقًا على الآية : بايعهم ـ والله ـ فأغلى ثمنهم!

وقول الحسن أيضًا : أنفسًا هو الذي خلقها ، وأموالا هو الذي رزقها!

وقول شِمْر بن عطية : ما من مسلم إلا ولله في عنقه بيعة وفيَّ بها ، أو مات عليها . ثم تلا هذه الآية[1] .

هذا ما ينبغي للداعية أن يحرص عليه ، ويستظهره ، ويستزيد منه .

٢- الإعراض عن الإسرائيليات :

وإن مما شوه تراثنا الثقافي ـ وخصوصًا في ميدان التفسير ـ تسرب الإسرائيليات إليه ، وتعكيرها لصفوه .

وقد بدأ هذا التسرب ـ للأسف الشديد ـ منذ عهد مبكر . أي من عهد الصحابة والتابعين ، وعلى أيدي أمثال : كعب الأحبار ، ووهب بن منبه وغيرهما ممن دخل في الإسلام من أهل الكتاب . وكذلك ما وصل إلى المسلمين من كتب اليهود والنصارى .

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٣٩١/٢) ، طبعة عيسى البابي الحلبي .

ولكن التسرُّب كان في أول الأمر قليلاً ثم كثر ، ضيِّقا ثم اتَّسع ، عفويًا ثم طفق يأخذ صفة الكيد والتدبير ، والدسِّ المتعمَّد .

وكأن اليهودية حين مُنيت أمام دعوة الإسلام بالهزيمة العسكرية ، في المدينة وخيبر وغيرهما ، أرادت أن تقاوم الإسلام بسلاح آخر يعوِّضها عن هزيمتها ، وذلك هو سلاح الغزو الثقافي ، فدسَّت إسرائيلياتها المنكرة ، في غفلة من الزمن ، فلم تمضِ برهة حتى غصَّت بها كتب المسلمين .

هذا مع أن القرآن الكريم قد سجَّل على أهل الكتاب عامة واليهود خاصة ، تحريفهم لكتبهم ، وقولهم على الله بغير علم ، وإن منهم لفريقًا ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقـــرة:٧٥) ، ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾ (البقرة:٧٨) ، وأنهم ﴿ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ (البقرة:٧٩) ، وأنهم ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ (المائدة:١٣) ، وأنهم ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ (النساء:٤٦ ، المائدة:١٣) ، إلى آخر ما دمغهم الله تعالى به من صفات السوء .

ومع أن الرسول ﷺ رأى صحيفة من التوراة في يد عمر بن الخطاب ، فغضب وقال : « أو متهوكوِّن فيها ـ أي أمتحيِّرون في ملَّتكم ـ يا ابن الخطاب؟ لقد جئتُكم بها بيضاء نقية ، والذي نفسي بيده ، لو كان موسى حيًّا ما حلَّ له إلا أن يتبعني »[1] .

فكيف مع هذا تساهل المسلمون في الأخذ عن أهل الكتاب وعن بني إسرائيل على الخصوص؟ يبدو لي أن هناك سببين لهذا التساهل :

أولهما : ما فهموه من حديث البخاري ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا : « بلِّغوا عنى ولو آية ، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومَن كذب عليَّ متعمِّدًا فليتبوأَّ مقعده من النار »[2] . وقد ذكره ابن كثير في مقدِّمة تفسيره ، مستدلاً به على جواز التحدُّث عنهم فيما لا نعلم كذبه من ديننا .

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٥١٥٦) ، وقال مخرجوه : إسناده ضعيف ، عن جابر ، وقال ابن حجر في الفتح : رجاله موثقون إلا أن في مجالد ضعفا (٣٣٤/١٣) .

(٢) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) ، وأحمد في المسند (٦٤٨٦) ، والترمذي في العلم (٢٦٦٩) ، عن عبد الله بن عمرو .

وسبب آخر : جعلهم يروون هذه الإسرائيليات في التفسير ، وهو أن كثيراً منها يتعلّق بأمور مسكوت عنها ، ليست مما علم المسلمون صحّته مما بأيديهم مما يشهد له بالصدق ، ولا مما علموا كذبه بما عندهم مما يخالفه . ولكنها أشياء لا من هذا القبيل ولا ذاك ، فلا تُصدَّق ، ولا تُكذَّب ، وتجوز على هذا حكايتها ، وغالبها مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني .

قال الحافظ ابن كثير في مقدِّمة تفسيره ، وهو منقول من رسالة شيخه ابن تيمية : (ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيراً ، ويأتي عن المفسِّرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم! وعددهم . وعصا موسى من أيِّ الشجر كانت! وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلَّم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى ، في القرآن ، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلَّفين في دينهم ولا دنياهم . ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز ، كما قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾(الكهف:٢٢) إلى آخر الآية)[١] .

وقد عقَّب على ذلك العلاَّمة الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله ، فقال وأحسن فيما قال : (إن إباحة التحدُّث عنهم ـ فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه : شيء ، وذكر ذلك في تفسير القرآن ، وجعله قولاً أو رواية في معنى الآيات ، أو في تعيين ما لم يعيَّن فيها ، أو في تفصيل ما أُجمل فيها : شيء آخر ، لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبيِّن لمعنى قول الله سبحانه ، ومفصِّل لما أُجمل فيه! وحاشا لله ولكتابه من ذلك .

وإن رسول الله ﷺ ـ إذ أذن بالتحدُّث عنهم ـ أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم[٢] . فأيُّ تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله ، ونضعها منه موضع التفسير أو البيان؟ اللهم غفرا .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٤/١) ، ومجموع الفتاوى (٣٨٧/١٣) .

(٢) إشارة إلى حديث : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . . . » . رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٦٢) ، والنسائي في الكبرى كتاب التفسير (١١٣٢٣) ، والبيهقي في الكبرى كتاب الشهادات (١٦٣/١٠) ، عن أبي هريرة .

وقد قال الحافظ ابن كثير نفسه في تفسير الآية (٥٠) من سورة الكهف ، بعد أن ذكر أقوالاً في (إبليس) واسمه ، ومن أيِّ قبيل هو؟ : (وقد رُوي في هذا آثار كثيرة عن السلف ، وغالبها من الإسرائيليات التي تُنقل ليُنظر فيها ، والله أعلم بحال كثير منها . ومنها ما قد يُقطع بكذبه ، لمخالفته للحقِّ الذي بأيدينا . وفي القرآن غُنية عن كلِّ ما عداه من الأخبار المتقدِّمة ، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وُضع فيها أشياء كثيرة ، وليس لهم من الحفَّاظ المتقنين ، الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، والبررة والنجباء)[١] .

وقال في أول سورة (ق) : (وقد رُوي عن بعض السلف أنهم قالوا : ق ، جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له جبل قاف!!! وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بني إسرائيل ، التي أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم ، مما لا يُصدَّق ولا يُكذَّب . وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبِّسون به على الناس أمر دينهم . كما افتري في هذه الأمة ـ مع جلالة قدر علمائها وحفَّاظها وأئمتها ـ أحاديث عن النبي ﷺ ، وما بالعهد من قدم . فكيف بأمة إسرائيل ، مع طول المدى ، وقلَّة الحفاظ النقاد فيهم ، وشربهم الخمور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته . وإنما أباح الشارع في الرواية عنهم في قوله : «وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»[٢] . فيما قد يجوِّزه العقل ، فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل)[٣] .

وقال عند تفسير الآيات (٤١-٤٤) من سورة النمل ، وقد ذكر في قصة ملكة سبأ أثرًا طويلاً عن ابن عباس ، وصفه بأنه (منكر غريب جدًّا) ، ثم قال : (والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقَّاة عن أهل الكتاب ، مما وجد في صحفهم ، كروايات كعب ووهب سامحهما الله فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بنى إسرائيل ، من

---

(١) تفسير ابن كثير (٨٩/٣) .
(٢) سبق تخريجه صـ٣٧ .
(٣) تفسير ابن كثير (٢٢١/٤) .

obeikandl.com

الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان، وما لم يكن، ومما حُرِّف وبُدِّل ونسخ، وقد أغناها الله سبحانه، عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، ولله الحمد والمنة)[1].

ولابن كثير رحمه الله، في تفسيره تعقيبات كثيرة من هذا النوع على الإسرائيليات، تتضمَّن إنكاره عليها، ورفضه لها، وإن كان يذكرها تبعًا لمن قبله، وفي بعض الأحيان يرفض ذكرها بالكليَّة، مبقيًا القرآن على إجماله دون الخوض في تفصيلات لم يأتِ بها حديث ثابت عن معصوم.

وذلك كما في تفسير قوله تعالى في سورة (ص): ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ (الآيات: ٢١-٢٥)، فقد قال ابن كثير:

(قد ذكر المفسِّرن ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتِّباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثًا لا يصحُّ سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرَّقَاشِي، عن أنس ﷺ. ويزيد وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة. فالأولى أن يقتصر على مجرَّد تلاوة هذه القصة، وأن يردَّ علمها إلى الله عزَّ وجلَّ، فإن القرآن حقٌّ، وما تضمَّنه فهو حقٌّ أيضًا)[2].

وكنتُ أودُّ أن يقف ابن كثير هذا الموقف من قصة سليمان في قوله تعالى في سورة (ص) أيضًا: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (ص:٣٤). ولكنه رحمه الله، أطال وأطنب في سرد الروايات العجيبة الغريبة المروية عن ابن عباس وقتادة والسُّدِّي ومجاهد وكعب الأحبار، وغيرهم من مفسِّري السلف، وكلُّها مما لا يقبله عقل، ولا يصدِّقه نقل، وقد ذكر حديثًا منها رواه ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، ثم قال: (إسناده إلى ابن عباس ﷺ قوي، ولكن الظاهر أنه إنما تلقَّاه ابن عباس ﷺ، إن صحَّ عنه من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوَّة سليمان عليه الصلاة والسلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه...) إلى أن قال:

---

(١) تفسير ابن كثير (٣٦٦/٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٣١/٤).

(وقد رُويت هذه القصة مطوَّلة عن جماعة من السلف ﷺ ، كسعيد بن المسيب ، وزيد بن أسلم ، وجماعة آخرين ، وكلُّها متلقَّاة من قصص أهل الكتاب)[1] .

فلم إذن تسويد الصفحات ، وإضاعة الأوقات فيما لا يسنده علم ولا هدى ولا كتاب منير؟ وقد قال ابن كثير عند تفسير الآيات (٥١-٦٥) من سورة الأنبياء : (والذي نسلكه في هذا التفسير : الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية ، لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروَّج عليهم ...)[2] . وليته أعرض عنها كلِّها ، لا عن كثير منها ، فإن القليل منها إثمه أكبر من نفعه .

ومن الكلمات البليغة المعبِّرة عن الإنكار والسخط على هذه الإسرائيليات ووجوب تنزيه القرآن عنها :

كلمة لابن عباس ، رواها البخاري في صحيحه ، ونقلها عنه الحافظ ابن كثير ، عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة . فقال ابن عباس : يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله ، تقرأونه محضًا لم يشب! وقد حدَّثكم الله أن أهل الكتاب قد بدَّلوا كتاب الله وغيَّروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ، ليشتروا به ثمنًا قليلاً . أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ، ما رأينا منهم أحدًا قط سألكم عن الذي أنزل إليكم[3] .

وهذه الموعظة القوية الرائعة ، رواها البخاري في ثلاثة مواضع من صحيحه)[4] .

٣- الحذر من الروايات الموضوعة والضعيفة :

وإذا كان على الداعية أن يحذر من الإسرائيليات ، التي كدَّرت صفاء التفسير بما دسَّته من سموم ، فإن عليه كذلك أن يحذر من الروايات الموضوعة والضعيفة التي حُشي بها كثير من كتب التفسير .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣٤/٤ - ٣٧) .

(٢) تفسير ابن كثير (١٨١ ، ١٨٢) .

(٣) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٦٣) ، وفي التوحيد (٧٥٢٢ ، ٧٥٢٣) .

(٤) مقدمة عمدة التفسير لأحمد شاكر (١٥/١ - ١٩) ، طبعة مكتبة التراث ، القاهرة .

سواء من ذلك ما كان مرفوعًا إلى النبى ﷺ ، وما كان موقوفًا على بعض الصحابة ، مثل علي وابن عباس وغيرهما ، وما كان منسوبًا إلى بعض التابعين مثل مجاهد وعكرمة والحسن وابن جبير وغيرهم ، أو منسوبًا إلى مَن بعدهم من أهل العلم .

وكان مثل ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن جرير الطبري ، يجمعون في تفسيرهم الصحيح والحسن ، والضعيف والمنكر ، بل الموضوع أحيانًا من الأحاديث المرفوعة والروايات الموقوفة والمقطوعة .

وإذا أخذنا مفسِّرًا كابن عباس مثالاً لنا فيما نقوله : وجدنا الطرق إليه تختلف قوَّة وضعفًا ، وقَبولاً وردًّا .

فهناك طريق معاوية بن صالح ، عن أبي طلحة ، عن ابن عباس . وهذه هي أجود الطرق عنه .

ونحوها : طريق قيس بن مسلم الكوفي ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس .

ودونها : طريق ابن إسحاق ، عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو ابن جبير ، عن ابن عباس ، وإسنادها حسن .

ودونها : طريق إسماعيل السُّدِّي الكبير ، عن أبي مالك ، أو عن أبي صالح ، عن ابن عباس . والسُّدِّي هذا مختلف فيه ، ولكن روى له مسلم وأهل السنن الأربعة .

وهناك طريق ابن جُرَيج ، عن ابن عباس ، وهذه تحتاج إلى نظر ودقَّة في البحث ؛ لأن فيها الصحيح والسقيم ، لأن ابن جُرَيج لم يقصد الصحَّة فيما جمع .

وهناك طريق الضحَّاك بن مُزَاحِم الهلالي ، عن ابن عباس ، وهي منقطعة إليه ، لأن الضحاك روى عنه ولم يلقه . وفي هذه الطريق من الضعفاء مَن روى عن الضحاك ، مثل بشر بن عُمارة ، عن أبي رَوق عنه .

وهناك طريق عطية العَوفِي ، عن ابن عباس ، وعطية ضعيف .

وطـريـق مقاتـل بن سليمان ، وقد ضعَّفوه ، وقد يروي عن مجاهد والضحَّاك ولم يسمع منهما ، وقد كذَّبه غير واحد ، ولم يوثِّقه أحد .

وهناك طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس . وهذه هي أوهى الطرق عنه . فإن انضمَّ إلى طريق الكلبي ، رواية محمد بن مرْوان السُّدِّي الصغير ، فهي سلسلة الكذب ، كما قال ابن حجر والسيوطي وغيرهما .

ومع هذا ، فإن المفسِّرين المتقدِّمين دوَّنوا هذه الروايات بُعجَرها وبُجَرها ، حتى أوهى الطرق عن ابن عباس ، كثيرًا ما يُخرِّج منها الثعلبي والواحدي[١] .

وقد كان عذر المتقدِّمين في سياق الروايات : أنهم يذكرونها بأسانيدها ، معتقـدين أنهم بذلك قد برئوا من عهدتها بذكر سندها ، كما قيل : مَن أسند لك فقـد حمَّلـك . أي حمَّلك البحث عن رواته ومبلغهم من العدالة والضبط .

وكان العلماء في عصرهم يقدرون على تتبُّع الأسانيد ونقدها ، ومعرفة حال رجالها . ولهذا لم يكونوا ـ في أغلب الأحيان ـ يعقِّبون عليها بتصحيح أو تضعيف .

ثم جاء مَن بعدهم ، فنقل عنهم هذه الأقوال والروايات بعد حذف أسانيدها ، فظنَّها مَن ظنَّها من المتأخرين ثابتة ، وهي غير ثابتة ، وهذا ما أوقع كثيرًا من المعاصرين في الخطأ ، حيث يكتفون بنقل الرواية عن الطبري والزمخشري والنسفي والرازي والخازن وغيرهم . وكأن مجرَّد هذه النسبة تُغنيهم عن البحث في قيمة الروايات ، ومقدار ثبوتها ، ومدى قوَّة أسانيدها .

وحسبك أن تقرأ ما نقله كثير من هؤلاء المفسِّرين في قصة زينب بنت جحش وزوجها الأول زيد بن حارثة ، وما جاء في شأنها في سورة الأحزاب ، وعتاب الله لرسوله في هذا الشأن ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ

---

(١) انظر : التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي (١/٧٧-٨١)، طبعة مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م ١٤٠٥هـ ، والإتقان (٢/١٨٩) .

obeikandl.com

﴿ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴾(الأحزاب:٣٧)

فقد جعلت الروايات من سبب نزول هذه الآية قصَّة حبٍّ عاطفي تخيَّله متخيِّل أو افتراه مفترٍ ، زعم أن زينب ظهرت للنبي ﷺ ، يومًا بعد زواجها من زيد ، فرآها فتعلَّق قلبه بها ، ورجع وهو يردِّد : سبحان مقلِّب القلوب! ولكنه كتم هذا الحبَّ . . إلخ حتى نزلت الآية .

وهذا الهراء لا دليل في الآية عليه ، ولم تصحَّ به رواية ، كما لا تسنده دراية ، ومع هذا تعلَّق به المستشرقون والمبشِّرون ، وجعلوا منه قصة درامية غرامية ، يتَّخذون منها وسيلة للطعن في محمد ﷺ ، وحجَّتهم أن ذلك منقول في أمهات كتب التفسير .

وأعجب من ذلك تعلُّق بعض المعاصرين من المسلمين ، الذين يكتبون في التفسير أو السيرة بهذه الروايات ، بدعوى أنها في كتب التفسير[١] .

ورحم الله الإمام الحافظ ابن كثير ، فقد قال عند تفسير الآية المذكورة :

(ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ههنا آثارًا عن بعض السلف ﷺ ، أحببنا أن نضرب عنها صفحًا ، لعدم صحَّتها ، فلا نوردها . وقد روى الإمام أحمد ههنا أيضًا حديثًا من رواية حماد بن زيد ، عن ثابت ، عن أنس ﷺ ، فيه غرابة تركنا سياقه أيضًا)[٢] .

وقد ردَّ كثير من المعاصرين هذه الروايات ، معتمدين على النقد الداخلي لها ، مثل الدكتور هيكل في (حياة محمد)[٣] ، والشيخ محمد الغزالى في (فقه السيرة)[٤] .

ومثل ذلك ما يذكره المفسِّرون عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ (الحج:٥٢) الآية من سورة

---

(١) مثل الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ في كتابها (نساء النبي) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٤٩١) .

(٣) حياة محمد لمحمد حسين هيكل صـ١٧٥- ١٨٢ ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الحادية عشرة .

(٤) فقه السيرة للشيخ محمد لغزالي صـ١١٦- ١١٨ ، الطبعة الثالثة .

الحج من قصة (الغرانيق) ، وهي قصة مرفوضة لا تقوم على ساقين ، ولا يؤيِّدها نقل صحيح ولا عقل صريح .

وقد قال ابن كثير : (قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ، ظنًّا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلِّها مرسلة ، ولم أرها من وجه صحيح)[1] .

ولكن - رحمه الله - لم يصنع هنا ما صنع في قصة زينب ، حيث ضرب هناك صفحًا عن الروايات الضعيفة ، ولم يوردها أصلا . أما ههنا فحكم بضعفها ولكنه ذكرها .

ومثل هذه الروايات الضعيفة المتهافتة يفتح لها المستشرقون صدورهم ، ويأخذونها مسلِّمين ؛ لأنها توافق هواهم ، وتخدم فكرتهم ، في حين يردُّون - كثيرًا - الروايات الصحيحة إذا عارضت اتِّجاههم .

٤- الحذر من الأقوال الضعيفة والآراء الفاسدة :

ومما ينبغي أن يحذر منه قارئ التفسير : الأقوال الضعيفة ، بل الفاسدة في بعض الأحيان . وهي أقوال صحيحة النسبة إلى قائليها من جهة الرواية ، ولكنها سقيمة أو مردودة من جهة الدراية . وليس هذا بمستغرَب ما دامت صادرة عن غير معصوم ، فكل بشر يصيب ويخطئ ، وهو معذور في خطئه ، بل مأجور أجرًا واحدًا إذا كان بعد تحرٍّ واجتهاد ، واستفراغ للوُسع في طلب الحقِّ[2] .

وإذا كان ابن عباس رضي الله عنهما ، وهو ترجمان القرآن وحبر الأمة ، قد ثبتت عنه آراء في التفسير اعتبرها جمهور علماء الأمة ضعيفة أو شاذَّة ، وخالفه فيها عامَّة الصحابة ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٢٩) . وقد ألف المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رسالة سمَّاها (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق) ، بيَّن فيها بالأدلة العلمية بطلان تلك الحكاية . فلتراجع .

(٢) إشارة إلى حديث : «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب ، فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ ، فله أجر» . متفق عليه : روه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٥٢) ، ومسلم في الأقضية (١٧١٦) ، كما رواه أحمد في المسند (١٧٧٧٤) ، وأبو داود في الأقضية (٣٥٧٤) ، وابن ماجه في الأحكام ، عن عمرو بن العاص .

مثل أقواله في المواريث ونحوها ، فكيف بمَن دون ابن عباس ، ومَن دون تلاميذ تلاميذه؟!

ولقد رأينا شيخ المفسرين الإمام أبا جعفر بن جرير الطبري ـ على جلالة قدره ، ومنزلة كتابه في التفسير ـ يختار أحيانًا تأويلات ضعيفة ، بل هي غاية في الضعف . كتفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ (النساء:٣٤) ، بأن معناها قيِّدوهن : من هَجَرَ البعيرَ إذا شدَّه بالهِجَار ، وهو القيد الذي يقيَّد به . والمراد : تقييد النساء لإكراههن على ما تمنَّعن عنه[1]! ولا عجب إن سمَّى الزمخشري تفسيره هذا بتفسير الثقلاء[2]!

وكذلك اختياره لآيات المائدة : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (المائدة:٤٤) ، ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (المائدة:٤٥) ، ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ (المائدة:٤٧) ، أنها في أهل الكتاب[3] . هذا مع أن الاعتبار بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب .

وقد ذُكرت هذه الآيات عند حذيفة بن اليمان فقال رجل : إن هذا في بني إسرائيل! فقال : نِعْمَ الإخوة لكم بنو إسرائيل ، إن كان لكم كلُّ حُلوة ، ولهم كلُّ مُرَّة[4]! يعني كيف يوصف بنو إسرائيل بالكفر أو الظلم أو الفسق إذا لم يحكموا بما أنزل الله عليهم ، ولا توصفون أنتم بذلك إذا لم تحكموا بما أنزل الله عليكم .

والمقصود هو اتِّقاء الضعيف من الأقوال والتأويلات ، مهما تكن مكانة قائلها . وقد قال عليٌّ كرَّم الله وجهه : لا تعرف الحقَّ بالرجال ، اعرَف الحق تعرف أهله[5] .

* * *

---

(١) تفسير الطبري (٨/٣٠٧) ، تحقيق محمود وأحمد شاكر ، طبعة دار المعارف ، مصر .

(٢) الكشاف للزمخشري (١/٥٢٥) ، طبعة دار المعرفة ، بيروت .

(٣) تفسير الطبري (١٠/٣٥٨) .

(٤) رواه الحاكم في التفسير (٢/٣١٢) ، وصححه على شرطهما ، ووافقه الذهبي .

(٥) فصلت في كتابي (كيف نتعامل مع القرآن العظيم) ما أجملته هنا وزيادة ، فليراجع .

السنة النبوية

والمصدر الثاني للثقافة الدينية للداعية هو : السنة . فهي شارحة القرآن والمبيِّنة له ، والمفصلة لما أجمل ، وفيها يتمثَّل التفسير النظري ، والتطبيق العملي لكتاب الله . قال الله تعالى يخاطب رسوله : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل:٤٤) ، ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل:٦٤) .

ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت : كان خُلقه القرآن[1] .

والسنة تشمل : أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته وأوصافه وسيرته ، فهي سجل حافل لحياته وجهاده عليه الصلاة والسلام ، في سبيل دعوته. حوت من جوامع الكلم ، وجواهر الحكم ، وكنوز المعرفة ، وأسرار الدين ، وحقائق الوجود ، ومكارم الأخلاق ، وروائع التشريع ، وخوالد التوجيه ، ودقائق التربية ، وشوامخ المواقف ، وآيات البلاغة : ثروة طائلة هائلة ، لا تنفد على كثرة الإنفاق ، ولا تبلى جِدَّتها بكرِّ الغداة ومرِّ العشي .

ولا يستغني داعية يريد أن يحدِّث أو يدرِّس أو يحاضر أو يخطب أو يكتب ، عن الرجوع إلى هذا المصدر الغني ، والمنهل العذب ، ليستقي منه ـ بقدر ما يتسع واديه ـ فيرتوي ويروي .

وقد صوَّر النبي ﷺ ما بعثه الله به من الهدى والعلم وموقف الناس من الاستفادة منه ، والإفادة به ، تصويرًا بليغًا معبِّرًا ، فيما رواه الشيخان ، عن أبي موسى مرفوعًا قال : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا ، فكانت منها طائفة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦) ، وأحمد في المسند (٢٥٣٠٢) ، وأبو داود في الصلاة (١٣٤٢) ، والنسائي في قيام الليل (١٦٠١) ، واللفظ لأحمد .

الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها ، وسقَوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل مَن فقُه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلَّم ، ومثل مَن لم يرفع بذلك رأسًا ، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به»[1] .

والأرض الطيبة التي تقبل الماء فترتوي به ، وتُنبت العشب والكلأ ، مثل أهل الفقه والدراية من أهل العلم . والأرض الثانية التي تمسك الماء لينتفع به غيرها ، مثل أهل الحفظ والرواية من أهل العلم . وأما الأرض السَّبِخَة الأخرى فمثل طائفة أهل الجهل والضلال التي لم تنتفع من علم النبوة وهداها بشيء .

وكتب السنة كثيرة جدًّا ، ولكن ينبغي للداعية أن يقدِّم ما هو الأهم منها : مثل الكتب الستة ، ومسند الدَّارِمَي ، وموطَّأ مالك ، ومسند أحمد .

ولبعض هذه الكتب مختصرات يمكن أن تكفي من لم تسعفه الهمَّة والوقت بقراءة الأصول ذاتها ، مثل (التجريد الصريح) للزبيدي ، وهو مختصر للبخاري ، حذف منه المكرَّرات والمعلَّقات والأسانيد ، وكذلك : (مختصر صحيح مسلم) للمنذري بتحقيق الألباني . وهناك كتب عملت على جمع هذه الكتب أو بعضها مثل : (جامع الأصول) لابن الأثير جمع فيه أحاديث الأصول الخمسة : الصحيحين وسنن أبي داود والترمذي والنسائي ، وجعل سادسها موطأ مالك ـ بدلاً من سنن ابن ماجه ؛ لأن فيه كثيراً من الضعيف . بل فيه أحاديث موضوعة ، ولهذا ودَّ بعض الحفَّاظ لو كان مسند الدَّارِمِي مكانه ، وذلك بعد حذف المكرَّر منها .

ومثله : (مجمع الزوائد) للهيثمي ، جمع فيه زوائد مسانيد الإمام أحمد والبزَّار ، وأبي يعلى ، ومعاجم الطبراني الثلاثة ، وهو مطبوع في عشرة أجزاء ، والمراد زوائد هذه الكتب على الكتب الستة ، على اعتبار ابن ماجه منها .

وقد قام أحد علماء الحديث في القرن الحادي عشر ، وهو العلاَّمة : محمد ابن محمد بن سليمان (المتوفى بدمشق سنة ١٠٩٤هـ) بجهد مشكور في الجمع بين

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في العلم (٧٩) ، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٢) ، كما رواه أحمد في المسند (١٩٥٧٣) ، والنسائي في الكبري كتاب العلم (٥٨١٢) .

كتابي ابن الأثير والهيثمي ، وأضاف إليهما زوائد الدارمي وابن ماجه ، فكان هذا الكتاب بحقٍّ موسوعة حديثية جمعت أكثر من عشرة آلاف حديث نبوي من أربعة عشر كتابا ، وسمَّى كتابه (جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد) .

وبجوار هذا اللون من تجميع الأحاديث ، وجد لون آخر ، أو طريقة أخرى وهي التجميع حسب أوائل الحديث ، وفقًا لترتيب الحروف الهجائية .

ومن ذلك ما صنعه الحافظ السيوطي في كتابيه (الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير) ، وقد أضاف إليه زيادات ضمَّها الشيخ النبهاني في كتاب سمَّاه (الفتح الكبير بزيادة الجامع الصغير) .

والكتاب الآخر هو (الجامع الكبير) ، الذي حاول أن يجمع فيه كلَّ ما وصل إليه من كتب الحديث . وقد رتَّبه الشيخ علاء الدين على المتقى من علماء الهند ، على الأبواب والموضوعات ، في كتابه الذي سمَّاه (كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال) .

وثمَّت كتب أخرى متخصِّصة هدفها تجميع نوع معيَّن من الأحاديث ، كأحاديث الأدعية والأذكار وما يتعلق بها ، في مثل كتاب (الأذكار) للإمام النووي ، وكتاب (الكلم الطيب) لشيخ الإسلام ابن تيمية . وأحاديث الآداب والفضائل وما يتعلَّق بها مثل كتاب (الأدب المفرد) للبخاري ، وكتاب (شعب الإيمان) للبيهقي ، وكتاب (رياض الصالحين) للنووي . والأحاديث التي تتضمَّن الترغيب والتحبيب في الخير والطاعة ، والترهيب والتخويف من الشرِّ والمعصية ، مثل (الترغيب والترهيب) للحافظ المنذري ، أو الأحاديث المتعلِّقة بالأحكام الفقهية مثل (عمدة الأحكام) للحافظ المقدسي ، ويشمل أحاديث الصحيحين فقط ، و(الإلمام) للإمام ابن دقيق العيد ، و(منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار) للمجد ابن تيمية ، و(بلوغ المرام من أدلة الأحكام) للحافظ ابن حجر .

وإلى جانب هذه الأنواع من الكتب توجد الشروح ، وهي كتب جَدُّ نافعة ولا يستغني عنها داعية ، ففيها من الفوائد الحديثية ، والفقهية والأصولية ، واللغوية والأدبية ، والتاريخية ، والأخلاقية ، ما لا يزهد فيه ذو عقل ، فهي مفاتيح لمَن أراد أن

يفتح مغاليق ما أُشكل من الأحاديث ، أو بدا تَعَارضُه في الظاهر . وهي مصابيح تنير الطريق لمَن يريد معرفة ما تتضمَّنه الأحاديث من أحكام وآداب وتشريع وتوجيه . ولا يَسَع عالمًا أن يُعرض عن هذه الثروة ويبدأ وحده من جديد ، فهذا منافٍ لمنطق العلم ، ومنطق العقل ، ومنطق التاريخ .

من هذه الكتب :

(أ) شروح البخاري ، مثل (عمدة القاري) للعَيني ، و(إرشاد الساري) للقَسطَلاني ، و(فتح الباري) لابن حجر ، وهو الذي قال فيه الشوكاني : **لا هجرة بعد الفتح!**

(ب) شروح مسلم ، وأبرزها : شرح النووي ، وشرح الأُبِّي والسنوسي .

(جـ) شروح أبي داوود . مثل (معالم السنن) للخطَّابي ، و(تهذيب السنن) لابن القيم ، و(عون المعبود) للديانوي[1] ، و(بذل المجهود) للسهارنفوري ، و(المنهل العذب المورود) لمحمود خطاب السبكي ، ولكنه لم يُكمَل .

(د) شروح الترمذي ، مثل (عارضة الأحوذي) لابن العربي ، و(تحفة الأحوذي) للمباركفوري .

(هـ) شروح النسائي ، أعني تعليقات السيوطي والسِّنْدي على السنن الصغرى .

(و) شروح الموطأ : مثل (المنتقى) لأبي الوليد الباجي ، و(تنوير الحوالك) للسيوطي ، و(المسوَّى) للدهلوي ، و(أوجز المسالك) لمحمد زكريا الكاندهلوي .

(ز) شرح المسند ، في (الفتح الرباني) لأحمد عبد الرحمن البنا ، ويتضمَّن ترتيب وشرح وتخريج المسند ، وكذلك تعليقات أحمد محمد شاكر على الأجزاء التي صدرت من المسند بتحقيقه .

(ح) شرح (مشكاة المصابيح) المسمَّى (مرقاة المفاتيح) للعلامة علي القاري في خمسة مجلدات ، و(مرعاة المفاتيح) للمباركفوري .

---

(١) وهو المؤلف الحقيقي للكتاب ، وإن كان قد نسبه لأخيه محمد أشرف العظيم آبادي .

(ط) شرح (الجامع الصغير) للعلامة المناوي في كتابه (فيض القدير) في ستة مجلدات ، وقد اختصره في شرح مختصر سمَّاه (التيسير) ، وقد طبع في مجلدين ، و(السراج المنير) للعزيزي ، وقد طبع في ثلاثة مجلدات .

(ى) شرح (رياض الصالحين) ، وهو المسمَّى (دليل الفالحين) في أربعة مجلدات .

(ك) شروح (الأربعين النووية) و(الخمسين الرجبية) ، وأعظم شروحها بلا شك هو شرح ابن رجب الذي سمَّاه (جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم) .

(ل) شروح أحاديث الأحكام مثل : (الإحكام شرح عمدة الأحكام) لابن دقيق العيد ، وعليه حاشية الصنعاني المسماة (العدة) ، ومثل : (نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار) للعلامة الشوكاني ، و(سبل السلام شرح بلوغ المرام) للصنعاني .

كما ينبغي الاهتمام بكتب (الغريب) وهي التي تُعنى بشرح المفردات والجمل الغريبة في الحديث ، مثل (غريب الحديث) لأبي عبيد ، و(الفائق في غريب الحديث) للزمخشري ، و(النهاية في غريب الحديث والأثر) لابن الأثير ، وهو موسوعة جليلة ، و(مشارق الأنوار) للقاضي عياض .

● تنبيهات للداعية في مجال السنة :

وأودُّ أن أنبِّه هنا إخواني الدعاة وأبنائي طلاب الدعوة إلى عدَّة أمور أراها مهمَّة لهم في مجال دراسة السنة .

(أ) الاهتمام بالسيرة النبوية :

أول هذه التنبيهات : أن يوجِّهوا عناية خاصة للجزء العملي من السنة ، وهو الذي يتعلَّق بسيرة النبي ﷺ ، ويسجِّل مواقفه من شتَّى الأمور ، وهديه في جميع شئون الدين والدنيا .

ففي هذه الناحية العملية من سنته ﷺ نجد الإسلام مجسَّمًا في حياة بشر ، ونجد القرآن حيًّا مشخَّصًا يسعى على قدمين ، ولما سُئلت عائشة عن خلقه عليه

obeikandi.com

الصلاة والسلام قالت : كان خلقه القرآن[1] . أي أنه ﷺ كان نموذجًا حيًا للفضائل والأخلاق التي دعا إليها القرآن .

فإذا كان الإسلام يدعو إلى العدل ، ويجعله إحدى قِيَمه العليا ، ومبادئه الأساسية ، ويقاوم الظلم بكلِّ صُوره ، فإن حياة النبي ﷺ وسيرته مثال ناطق لتحقيق العدل في جميع المجالات : العدل مع النفس ، والعدل مع الأسرة ، والعدل مع الأقارب ، والعدل مع الأصدقاء ، والعدل مع الأعداء ، وهكذا كلُّ ما يمكن من صور العدل ومظاهره . والأمثلة التطبيقية لهذه الأنواع من العدل موفورة في سيرته ﷺ ، لا يعجز الداعية عن استخراجها من كتب الحديث والسيرة .

وإذا كان الإسلام يدعو إلى الشورى ، بوصفها أساسًا من أسس الحياة الاجتماعية والسياسة في الإسلام ، فإن سيرة النبي ﷺ هي وسيلة الإيضاح لتطبيق هذا المبدأ الجليل ، كما يلمس ذلك الدارس لغزوات مثل : بدر وأُحد وخيبر وغيرها . وإذا كان الإسلام يدعو إلى فضائل خُلُقية معيَّنة ، مثل : الصدق والأمانة ، والوفاء ، والصبر ، والسخاء ، والشجاعة ، والرحمة ، وغيرها ، فإن سيرة النبي ﷺ هي التطبيق الرائع لهذه الأخلاق .

وهكذا كلُّ المبادئ والقِيَم التي جاء بها الإسلام تتجلَّى في حياته عليه الصلاة والسلام . ولهذا ينبغي للداعية الموفَّق ـ بعد أن يذكر موضوعه معزَّزًا بالآيات والأحاديث النظرية ـ أن يؤيِّدها بمواقف من السيرة العملية .

فمَن كان يتحدَّث عن خلق التواضع ، مثلا ، فلا يحسن به أن يكتفي بسرد الآيات والأحاديث في فضله ، حتى يذكر تواضعه ﷺ في أهله ، وفي أصحابه ، فقد كان يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويطحن بالرحا مع الجارية والغلام[2] .

---

(١) سبق تخريجه صـ٤٧ .

(٢) روى أحمد في المسند (٢٤٩٠٣) ، وقال مخرجوه : صحيح ، وأبو يعلى في المسند (١١٧/٨) ، وابن حبان في الحظر والإباحة (٦٤٤٠) ، وقال الأرناؤوط : صحيح ، عن عائشة ، سئلت ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل في بيته ؟ قالت : كان يخيط ثوبه ، ويخصف نعله ، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم .

ويجلس مع صحابته كواحد منهم ، حتى يأتي الغريب فلا يعرفه من بينهم[١] ، ولا يميِّز نفسه عنهم في حضر أو سفر ، حتى اختار مرة أن تكون مهتمَّه جمع الحطب لإنضاج الطعام لهم . وأبى ﷺ في غزوة بدر أن يركب وصاحباه يمشيان - وقد عرضا عليه ذلك راضيين - قائلا : « ما أنتما بأقوى مني على المشي ، وما أنا بأغنى منكما عن الأجر »[٢] .

ولعل من النافع هنا أن أذكِّر الإخوة الدعاة بأن للسيرة مصادر شتَّى غير كتب السيرة الرسمية المعروفة مثل : (سيرة ابن هشام) ، وشرحها للسهيلي المسمَّى (الروض الأنف) ، و(إمتاع الأسماع) للمقريزي ، أو (السيرة الحلبية) ونحوها . فلا بد من الانتفاع بتلك المصادر كلِّها ما أمكن ذلك .

من هذه المصادر :

(١) القرآن الكريم وتفاسيره ، وبخاصة المأثور منها .

(٢) كتب الحديث ، فهي كما تتضمَّن أقوال النبي ﷺ ، تتضمن أفعاله وتقريراته وأوصافه الخَلقية والخُلقية ، ومن ذلك مراحل دعوته وجهاده وغزواته ومواقفه ، وهي سجل حافل لحياته كلِّها .

(٣) كتب الشمائل والهدي النبوي مثل (الشمائل المحمدية) للترمذي وقد شرحه أكثر من واحد ، و(زاد المعاد في هدى خير العباد) لابن القيم .

---

(١) رواه البخاري في العلم (٦٣) ، وأحمد في المسند (١٢٧١٩) ، وأبو داود في الصلاة (٤٨٦) ، والنسائي في الصيام (٢٠٩٢) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤٠٢) ، عن أنس قال : بينما نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم ، في المسجد ، دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ، ثم قال لهم : أيكم محمد؟ الحديث .

(٢) رواه أحمد في المسند (٣٩٠١) ، وقال مخرجوه : إسناده حسن ، والبزار في المسند (١٨١٣) ، وابن حبان في السير (٤٧٣٣) ، وقال الأرناؤوط : إسناده حسن ، والنسائي في الكبرى كتاب السير (٨٧٥٦) ، والحاكم في الجهاد (٢/٩١) ، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي ، عن ابن مسعود ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد والبزار ، وفيه عاصم بن بهدلة وحديثه حسن ، وبقيه رجال أحمد رجال الصحيح (٦/٣٧) ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٥٧) .

obeikandi.com

(٤) كتب التاريخ العام مثل : تواريخ الطبري وابن الأثير وابن كثير ، ففي كلٍّ منها فصول ضافية عن السيرة النبوية ، ولا سيما ابن كثير ، وقد فُصلت السيرة من تاريخه وطُبعت محققة مستقلًّة .

(٥) كتب دلائل النبوة، وهي التي تعنى بما ظهر على يديه ﷺ من الآيات والخوارق، وما نبّأ من الغيوب . . . إلخ .

(ب) جمع الأحاديث في الموضوع الواحد وتصنيفها :

وما نبّهنا عليه في شأن القرآن ، من العناية بجمع الآيات في الموضوع الواحد ، ومحاولة تصنيفها وتقسيمها على أجزائه وعناصره ، ننبّه عليه هنا فيما يتعلّق بالأحاديث أيضًا .

فعلى الداعية أن يستحضر الأحاديث المتّصلة بموضوعه من مظانّها من دواوين السنة المختلفة ، وبخاصة ما كان منها مرتّبا على الأبواب ، مثل الكتب الستة ، و(الموطأ) ، و(سنن الدارمي) ، و(سنن البيهقي) ، و(المستدرك) ، و(مجمع الزوائد) وغيرها ، وكذلك مثل (رياض الصالحين) و(الترغيب والترهيب) ونحوها . . . مع الحذر من الأحاديث الموضوعة والواهية ، كما سنفصّل ذلك بعد .

وبعد الجمع والاستحضار : تبدأ عملية التصنيف والترتيب ، وهذه تحتاج إلى وعي وحسن إدراك ، فليس المطلوب هو مجرّد سرد الأحاديث الواردة في الموضوعات تباعًا ، وإنما المطلوب الاستشهاد بها على كلّ عنصر من عناصر الموضوع ما أمكن ذلك .

● موقف السنة من العلم :

هب أنك تريد أن تبيّن موقف السنة من (العلم) الذي يلهج به الناس في عصرنا ويقولون : إنه الأساس الأول لأيّ حضارة شامخة الذُرا . وأردتَ أن تستشهد على مكانة هذا العلم في السنة ، كما استشهدتَ من قبل على مكانته في القرآن ، فهنا ـ بعد أن جمعنا الأحاديث وجُلنا في رحاب السنة ـ نستطيع أن نصنّفها في ضوء هذه العناصر :

(١) الحث على طلب كلِّ علم نافع ، والترغيب في التعلُّم والتعليم . وفي ذلك أحاديث كثيرة معروفة في مظانِّها لا تخفى على طالب العلم .

(٢) محاربة الأمية بكلِّ وسيلة مستطاعة ، حتى إنه ﷺ كان يفدي الأسير من قريش في غزوة بدر إذا علَّم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة[١] .

(٣) الحث على تعلُّم اللغات ، كما أمر ﷺ بذلك زيد بن ثابت كاتب الوحى بتعلم اللغات[٢] .

(٤) استخدام أسلوب الإحصاء ، كما روى البخاري ومسلم عنه ، أنه طلب إحصاء بعدد المسلمين بعد الهجرة فأحصوا له ، فكانوا ألفًا وخمسمائة[٣] .

(٥) اقتباس أي علم يفيد الإسلام وأهله ، ولو كان من عند غير المسلمين ، كما رأينا في الاستفادة من أسرى بدر المشركين . . . ويستأنس لذلك بحديث الترمذي وابن ماجه : « الحكمة ضالة المؤمن ، أنَّى وجدها فهو أحقُّ بها »[٤] ، وإن كان سنده ضعيفا .

(٦) الخضوع لمنطق الملاحظة والتجربة في أمور الدنيا ، كما ظهر ذلك في موقفه من تأبير النخل ، حيث أشار على أصحابه برأي ، فأخذوا به ظانِّين أنه من أمر الدين والوحى ، فنبَّههم على أنه كان ظنًّا منه ، ولم يكن وحيًا من الله ، قائلاً لهم : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »[٥] .

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٢١٦) ، وقال مخرجوه : حسن ، والبيهقي في الكبرى كتاب الإجارة (١٢٤/٦) ، والحاكم في الجهاد (١٤٠/٢) ، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الكبرى كتاب الإجارة (١٢٤/٦) ، عن ابن عباس .

(٢) رواه البخاري في الأحكام (٧١٩٥) ، وأبو داود في العلم (٣٦٤٥) ، والترمذي في الاستئذان (٢٧١٥) .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٦٠) ، ومسلم في الإيمان (١٤٩) ، كما رواه أحمد في المسند (٢٣٢٥٩)، والنسائي في الكبري كتاب السير (٨٨٢٤) ، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٩)، عن حذيفة بن اليمان .

(٤) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٧) ، وقال : حديث غريب ، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٩) ، وضعفه الألباني جدا في ضعيف ابن ماجه (٩١٢) ، عن أبي هريرة .

(٥) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣) ، وابن ماجه في الرهون (٢٤٧١) عن عائشة رضي الله عنها .

(٧) النزول عند رأي الخبراء وأهل المعرفة ، كنزوله على رأي الحباب بن المنذر في معركة بدر[١] ، وعلى رأي سلمان في حفر الخندق[٢] .

(٨) الحملة على الدجل والخرافة ، والتحذير من الدجالين والمخرِّفين مثل الكهَّان والعرَّافين والمنجِّمين والسحرة وأمثالهم ، رعاية لسنة الله في الخلق ، واحترامًا لشبكة الأسباب والمسببات ، وفي ذلك أحاديث جمَّة .

● قيمة النية في الإسلام :

ونزيد الأمور وضوحًا بمثال آخر ، حول (النية في الإسلام) ، فإذا أردتَ أن تلقي الضوء على هذا الموضوع من خلال الأحاديث الشريفة ، بالإضافة إلى الآيات الكريمة ، يمكننا أن نعرض عناصره كما يلي :

١- الإسلام يجعل النية معيار العمل ، ويهتمُّ بالقلوب لا بالمظهر ، وبالباعث لا بالصورة ـ على عكس ما يفتري المبشِّرون ـ اقرأ : ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ (ق:٣٣) ، ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء:٨٩ ، الصافات:٨٤) ، ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ (البقرة:١٧٧) ، ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا ﴾ (الحج:٣٧) ، وفي السنة : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[٣] ، « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكلِّ امرئ ما نوى»[٤] ، وقد قال جماعة من العلماء : هذا الحديث ثلث الإسلام . وبه ابتدأ كثير من المحدثون مصنفاتهم ، كما فعل الإمام البخاري في صحيحه .

---

(١) رواه أبو داود في المراسيل (٣٠٦) .

(٢) انظر فتح الباري (٧/٣٩٣) ، وتاريخ الطبري (٢/٩١) .

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد في المسند (٧٨٢٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٤٣)، وابن حبان في البر والإحسان (٣٩٤) ، عن أبي هريرة .

(٤) متفق عليه : رواه البخاري في بدء الوحي (١) ، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧) ، كما رواه أحمد في المسند (١٦٨) ، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١) ، والترمذي في الجهاد (١٦٤٧) ، والنسائي في الطهارة (٧٥) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧) ، عن عمر .

٢- النية الصالحة تجعل العادة عبادة ، والمباح طاعة ، بل الشهوة قُربة . وفي ذلك جملة أحاديث : «حتى في اللقمة يضعها في فم امرأته»[(١)] - «وفي بُضْع أحدكم صدقة»[(٢)] ، «الخيل ثلاثة : ففرس للرحمن ، وفرس للإنسان ، وفرس للشيطان»[(٣)] .

٣- النية المدخولة تحبط الطاعات والقُرُبات ، كالهجرة والجهاد والإنفاق . . . إلخ «مهاجر أم قيس»[(٤)] ، «مَن غزا في سبيل الله ولم ينوِ إلا عقالاً فله ما نوى»[(٥)] حديث الثلاثة المرائين ، القارئ والمنفق والمجاهد «أول من تسعر بهم النار يوم القيامة»[(٦)] .

٤- صدق النية وحده موجب للمثوبة :

(أ) فيثاب المرء على عمل نواه وإن لم يتمَّه : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ ﴾ (النساء: ١٠٠) .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الوصايا (٢٧٤٢) ، ومسلم في الوصية (١٦٢٨) ، كما رواه أحمد في المسند (١٤٨٠) ، وأبو داود (٢٨٦٤) ، والترمذي (٢١١٦) ، والنسائي (٣٦٢٦) ، وابن ماجه (٢٧٠٨) ، أربعتهم في الوصايا ، عن سعد بن أبي وقاص .

(٢) رواه مسلم في الزكاه (١٠٠٦) ، وأحمد في المسند (٢١٤٨٢) ، والبيهقي في الزكاة (١٨٨/٤) ، عن أبي ذر .

(٣) رواه أحمد في المسند (٣٧٥٦) ، وقال مخرجوه : صحيح وهذا إسناد ضعيف ، والشاشي في المسند (٢٥٨/٢) ، والبيهقي في الكبرى كتاب السبق والرمي (٢١/١٠) ، عن ابن مسعود ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد ورجاله ثقات ، فإن كان القاسم بن حسَّان سمع من ابن مسعود فالحديث صحيح (٥٧٤/٥) ، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٣٩٢) .

(٤) رواه الطبراني (١٠٣/٩) ، عن ابن مسعود ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح (١٢٠/٢) ، والمزي في تهذيب الكمال (١٢٦/١٦) ، وصحح إسناده ، وصححه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٥٩٠/١٠) ، وابن حجر في الفتح (٣٢/١) .

(٥) رواه أحمد في المسند (٢٢٦٩٢) ، وقال مخرجوه : حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف ، والنسائي (٣١٣٨) ، والدارمي (٢٤١٦)، كلاهما في الجهاد ، وحسنه الألباني في صحيح النسائي (٢٩٤١)، عن عبادة بن الصامت .

(٦) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٥) ، وأحمد في المسند (٨٢٧٧) ، والنسائي في الجهاد (٣١٣٧) عن أبي هريرة .

(ب) ويثاب المرء على عمل نواه وقع خطأً، كما في حديث: «لك ما نويتَ يا يزيد، ولك ما أخذتَ يا مَعْن»[1].

(جـ) ويثاب المرء على عمل نواه وإن لم يعمله أصلاً، وقد ورد ذلك في أمور شتَّى.

في الجهاد: «إن أقوامًا خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا، حبسهم العذر»[2].

في الشهادة: «مَن سأل الله تعالى الشهادة بصدق: بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»[3].

في قيام الليل: «إذا مرض العبد أو سافر كُتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم»[4].

في الإنفاق: «إنما الدنيا لأربعة نفر...»[5] إلخ الحديث، الذي جعل المنفق في الخير والمتمنِّي بقلبه لمثل عمله في الأجر سواء».

وبإزاء هذا، العقوبة على نيَّة الشر والمعصية: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»[6]، والحديث السابق الذي جعل المنفق ماله في الشرِّ ومعصية الله والمتمنِّي لعمله بقلبه ونيَّته مستويين كما قال في الحديث: «فهما في الوزر سواء».

---

(١) رواه البخاري في الزكاة (١٤٢٢)، وأحمد في المسند (١٥٨٦٠)، والدارمي في الزكاة (٤٧١/١)، والبيهقي في الكبرى كتاب قسم الصدقات (٣٤/٧)، عن معن بن يزيد.

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٣٩)، وأحمد في المسند (١٢٠٠٩)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٠٨)، وأبو يعلى في المسند (٣٨٣٩)، وابن حبان في السير (٤٧٣١)، عن أنس.

(٣) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٩)، وأبو داود في الصلاة (١٥٢٠)، والترمذي (١٦٥٣)، والنسائي (٣١٦٢)، وابن ماجه (٢٧٩٧)، ثلاثتهم في الجهاد، عن سهل بن حنيف.

(٤) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٦)، وأحمد في المسند (١٩٦٧٩)، وأبو داود في الجنائز (٢٩٩٦)، عن أبي موسى.

(٥) رواه أحمد في المسند (١٨٠٣١)، وقال مخرجوه: حسن، والترمذي في الزهد (٢٣٢٥)، وقال: حسن صحيح، عن أبي كبشة الأنماري، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٦).

(٦) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣١)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٨)، كما رواه أحمد في المسند (٢٠٤٣٩)، وأبو داود في الفتن (٥٢١١)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٢٢)، عن أبي بكرة.

٥- بركة النية الصالحة :

(أ) معونة الله : «مَن أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدَّى الله عنه»[(١)] ، ﴿ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ (الأنفال:٧٠) ، الآية من سورة الأنفال .

(ب) نجاح العمل كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ ﴾ بَيْنَهُمَآ (النساء:٣٥) ، الآية من سورة النساء ، كما يؤيِّده حديث المتصدِّق على السارق والزانية والغني ، حيث أُتي في المنام فقيل له : «أما صدقتك على سارق ، فلعله أن يستعفَّ عن سرقته ، وأما صدقتك على زانية ، فلعلها تستعفَّ عن زناها ، وأما صدقتك على غني ، فلعله يعتبر فينفق مما آتاه الله»[(٢)] .

٦- لا تأثير للنية في أمرين :

أولا : المعاصي والمحرَّمات ، فحسن النية لا يجعلها طاعة ولا حلالاً ، كمَن أكل الربا ليبني مسجدًا «إن الله طيِّب لا يقبل إلا طيِّبًا»[(٣)] ، فالإسلام يريد شرف الغاية والوسيلة معًا ، ولا يقبل أن تصل إلى الحقِّ بطريق الباطل .

ثانيًا : العبادات والقُرُبات التي لم يشرعها الله ، فليس لأحد أن يخترع أو يضيف شيئًا يتعبَّد به ، وإن قصد الثواب ، ونوى القربة إلى الله ، وهذا أصل يهدم كلَّ ابتداع في الدين ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح المشهور : «مَن أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ»[(٤)] .

---

(١) رواه البخاري في الاستقراض (٢٣٨٧) ، وأحمد في المسند (٨٧٣٣) ، وابن ماجه في الصدقات (٢٤١١) ، والبيهقي في الكبرى كتاب البيوع (١٠٧٣٧) ، عن أبي هريرة .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (١٤٢١) ، ومسلم (١٠٢٢) ، كلاهما في الزكاة ، كما رواه أحمد في المسند (٨٢٨٢) ، والنسائي في الزكاة (٢٥٢٣) ، عن أبي هريرة .

(٣) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥) ، وأحمد في المسند (٨٣٤٨) ، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٨٩) ، والبيهقي في الكبرى كتاب صلاة الاستسقاء (٣٤٦/٣) ، عن أبي هريرة .

(٤) متفق عليه : رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧) ، ومسلم في الأقضية (١٧١٨) ، كما رواه أحمد في المسند (٢٦٠٣٣) ، وأبو داود في السنة (٤٦٠٦) ، وابن ماجه في المقدمة (١٤) ، عن عائشة .

(جـ) الحذر من وضع الأحاديث في غير موضعها :

وعلى الداعية كذلك : أن يحذر من سوء الفَهم ، للأحاديث الصحاح والحسان ، التي وردت بها كتب السنة ، وتلقَّاها علماء الأمة بالقَبول ، فحرَّفها بعض الناس عن مواضعها ، وتأوَّلوها على غير تأويلها ، وبعدوا بها عما أراد الله ورسوله .

من ذلك أحاديث لوت بعض الفرق أعِنَّتها ، لتؤيِّد بها مذاهبها ، وتعضِّد بها أفكارها ، فاتَّخذوا المذاهب أصلاً ، وجعلوا النصوص لها تبعًا ، صنعوا ذلك مع القرآن ، وصنعوا ذلك مع السنة ، وقلَّما سلمت فرقة من الوقوع في هذه الورطة ، إلا مَن عصم ربُّك من أهل السنة وأتباع السلف .

وما وقع فيه القدماء ، سقط في مثله المُحْدَثون ، فرأينا بعض الناس يتَّخذ من الحديث الصحيح ، الذي رواه مسلم في قصة تأبير النخل ، وهو قوله عليه السلام : «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[1] ـ مستندًا لعزل التشريع الإسلامي في المجالات الاقتصادية والسياسة ونحوها ، بزعم أن الرسول ﷺ ، فوض لنا تنظيم أمر دنيانا ، وشئون حياتنا بهذا الحديث .

والحديث إنما يقصد بأمر دنيانا : الشئون الفنية المتعلِّقة بالوسائل والكيفيَّات ، مثل شئون الزراعة والصناعة ونحوها ، مما تُرك لعقول الناس واجتهادهم ، وإلا ما أنزل أطول آية في كتابه لتنظيم شأن دنيوي وهو كتابة الدَّين . وما جاءت مئات النصوص وآلافها من الآيات والأحاديث تنظِّم عَلاقات الناس في حياتهم الدنيا ، من بيع وشراء وإجارة وهبة . . . إلخ .

ومن ذلك الأحاديث التي وردت فيما سمَّاه العلماء (الفتن) وفساد آخر الزمان . فبعضهم يفهم منها ـ أو يضعها موضعًا يفهم منها ـ أن الشرَّ قد عمَّ ، وأن سيل الفساد قد طمَّ ، وأن لا سبيل إلى الخلاص ، ولا أمل في إصلاح ، وأن الأمور لا بد أن تسير من سيئ إلى أسوأ ، ومن أسوأ إلى الأسوأ ، إلى أن تقوم الساعة . وطالما سمعتُ

---

(١) سبق تخريجه صـ٥٥ .

بعض المرشدين الدينيين يجمعون أحاديث الفتن وأشراط الساعة ، وما شابهها في نسق يوحي باليأس من أي عمل ، ونفض اليد من كلِّ محاولة للعلاج أو الإصلاح أو التصدي للفساد ، وهذا ما رسخ في أذهان كثير من العامة ، بل بعض الخاصة . فإذا دعوتهم للإسهام في عمل جماعي إيجابي تؤدِّي به الجماعة فرض الكفاية الواجب عليها ، وتُسقط به الإثم والحرج عنها ، شهروا في وجهك هذه الأحاديث!

ولعل أقرب مثل يُذكر هنا حديث : «بدأ الإسلام غريبًا ، وسيعود غريبًا كما بدأ ، فطوبى للغرباء»[1] ، وهو حديث صحيح ، رواه مسلم وغيره . فمن الناس مَن يتَّخذ من هذا الحديث سندًا وحجَّة له في القعود عن واجب الدعوة إلى الإسلام ، وترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ويعارض به كلَّ دعوة جادَّة لاستعادة حكم القرآن ، وإقامة دولة الإسلام .

فهل يُتصوَّر أن الرسول الكريم قال هذا الحديث ، ليثبِّط عزائم أمته عن الدعوة والعمل لدينهم ، وليطفئ جمرة الأمل في قلوبهم؟

لا ، ثم لا . إنما أراد أن يحذِّرهم لينتبَّهوا ، أو ينبِّههم ليحذروا . . . إنه بمثابة إشعال الضوء الأحمر علامة على الخطر ، حتى يتفادى السائرون السقوط في الحُفَر أو الاصطدام بالغير .

ولم يُرِد الحديث أبدًا أن يغلق باب الأمل ، أو طريق العمل ، على أهل الخير . كيف! وقد قال في آخر الحديث : «فطوبى للغرباء» ، وفي بعض روايات الحديث عند غير مسلم : قيل : ومَن الغرباء ، يا رسول الله؟ قال : «الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدي من سنَّتي»[2] .

ففي هذا دعوة صريحة إلى إصلاح ما أفسد الناس من منهج النبوَّة ، والعمل الجاد لردِّ الشاردين إلى الطريق المستقيم .

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٤٥) ، وأحمد في المسند (٩٠٥٤) ، وأبو يعلي في المسند (٦١٩٠) ، عن أبي هريرة .

(٢) رواه الترمذي في الإيمان (٢٦٣٠) ، وقال حديث حسن ، والطبراني في الكبير (١٩/١٧) ، عن عمرو بن عوف المزنى ، وضعف الألباني سنده في المشكاة (١٧٠) .

وفي حديث آخر: قيل: ومن الغرباء؟ قال: «النزَّاع من القبائل»[1]. أي الذين نزعوا عن أهليهم وعشيرتهم، وهاجروا بأبدانهم، أو بعقولهم وقلوبهم في سبيل الإسلام.

وفي حديث غيره قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله؟ قال: «ناس صالحون قليل في ناس كثير، مَن يعصيهم أكثر ممَّن يطيعهم»[2].

هؤلاء الغرباء إذن ليسوا طائفة مترهِّبة منعزلة، بل هم طائفة قائمون على الحقِّ، يؤدُّون دور الصحابة في بدء نشأة الإسلام، فقد كانوا غرباء ولم تثنهم غربتهم عن الدعوة والجهاد، وإن كان مَن يعصيهم أكثر ممَّن يطيعهم.

فالمقصود إذن بمثل هذا الحديث: هو التنويه بالغرباء، الذين يصلحون إذا فسد الناس، ويصلحون ما أفسد الناس، وحثُّ كلِّ مسلم أن يكون واحدًا من هؤلاء، أو ـ على الأقل ـ يكون عونًا لهم، إن لم يكن منهم، فالحديث دعوة إلى البناء والإيجابية، وليس إلى اليأس أو الفرار من الميدان، بدعوى فساد الزمان.

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا!

ومن الأحاديث التي تُذكر هنا، ما رواه أحمد وأبو داوود، عن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها». قالوا: أمن قلَّة نحن يومئذ، يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوَهْن». قالوا: وما الوهن، يا رسول الله؟ قال: «حبُّ الدنيا وكراهية الموت»[3].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣٧٨٤)، وقال مخرجوه: إسناد صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي الأحوص فمن رجال مسلم، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٨)، وأبو يعلى في المسند (٤٩٧٥)، عن عبد الله بن مسعود، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٢٣).

(٢) رواه أحمد في المسند (٦٦٥٠)، وقال مخرجوه: حسن لغيره، والطبراني في الأوسط (٨٩٨٦)، عن عبد الله بن عمرو، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦١٩).

(٣) رواه أحمد في المسند (٢٢٣٩٧)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، ورواه البيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٣٧٢)، عن ثوبان، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٥٨).

فالرسول عليه الصلاة والسلام حين ينبِّه الأمة في هذا الحديث إلى المؤامرات الدولية التي تُحاك لها في المستقبل ، والتي كشف الله له الحجب عنها ، فأخبر عنها كأنه يراها رأي العين ، وكأنه معنا يعايشها ، لم يقصد بذلك تيئيس الأمة من مقاومة كيد أعدائها ، بل أراد أن يلفتها إلى مؤامرات خصومها في الخارج وتكالبهم عليها ، لتلتفت هي إلى نفسها في الداخل ، وإلى عوامل الضعف التي تنخر في كيانها المعنوي ، رغم كثرتها العددية ، حتى تحاول التغلُّب عليها . فإن أول مراحل العلاج أن تعرف أسباب المرض .

على أن هناك أمرًا يجب أن ننبِّه عليه دارس السنة في مواجهة أحاديث الفتن ونحوها ، وهو أن نرفع نحن في وجه المثبِّطين ـ الذين يضعون الأحاديث في غير موضعها ـ الأحاديث المبشِّرات ، التي تنير القلوب بأشعة الأمل ، وقوَّة الرجاء ، في غد الإسلام ، ومستقبل المُسلمين ومن ذلك :

١- ما رواه أحمد في صحيحه : « ليبلغنَّ هذا الأمر (يعنى هذا الدين) ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعزِّ عزيز ، أو بذلِّ ذليل ، عزًّا يعزُّ الله به الإسلام ، وذلاً يذلُّ الله به الكفر »[1] .

٢- ما رواه أحمد ومسلم وأبو داوود والترمذي وابن ماجه ، من حديث ثوبان مرفوعًا : « إن الله زوى لي الأرض (أي جمعها وضمَّها) فرأيتُ مشارقها ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوي لي منها . . . »[2] .

٣- ما رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة والحاكم وصحَّحه ، عن أبي قَبِيل قال : كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص وسئل : أي المدينتين تفتح أولاً ، القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حِلَق ، قال : فأخرج منه كتابًا ،

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٦٩٩٨) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح على شرط مسلم ، عن تميم الداري .

(٢) رواه مسلم في الفتن (٢٨٨٩) ، وأحمد في المسند (٢٢٣٩٥) ، وأبو داود (٤٢٥٢) ، والترمذي (٢١٧٦) ، وابن ماجه (٣٩٥٢) ، ثلاثتهم في الفتن ، عن ثوبان .

openkanz.com

قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ : أي المدينتين تفتح أولا ، القسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ : « مدينة هرقل تفتح أولاً! » . يعني القسطنطينية[1]. ورومية هي (روما) عاصمة إيطاليا ، وهكذا كانت تُلفظ كما في معجم البلدان ، وقد فُتحت الأولى وبقيت الثانية . ولن يتخلَّف ما بشَّر به الصادق المصدوق .

٤- ما رواه أبو داوود والحاكم وصححه والبيهقي في المعرفة ، عن أبي هريرة مرفوعًا : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مائة سنة مَن يجدِّد لها دينها »[2] ، قال الحافظ العراقي وغيره : سنده صحيح ، ولذا رمز السيوطي لصحَّته في الجامع الصغير .

٥- ما رواه أحمد والترمذي ، عن أنس ، وأحمد عن عمار بن ياسر[3] ، وأبو يعلي عن علي[4] ، والطبراني عن عبد الله بن عمرو[5] - بإسناد حسن - مرفوعًا : « مثل أمتي مثل المطر ، لا يُدرى أوله خير أم آخره »[6] ، أي كما أن لكلِّ نوبة من نوبات المطر فائدتها في النماء ، كذلك كلُّ جيل من أجيال الأمة له خاصية توجب خيريته .

---

(١) رواه أحمد في المسند (٦٦٤٥) ، وقال مخرجوه : إسناده ضعيف ، وابن أبي شيبة في الجهاد (١٩٨١١) ، والدارمي في المقدمة (٤٨٦) ، والحاكم في الفتن والملاحم (٤/٥٠٨) ، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي ، عن عبد الله بن عمرو ، وصححه الألباني في الصحيحة (٤) .

(٢) رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩١) ، والطبراني في الأوسط (٦٥٢٧) ، والحاكم في الفتن والملاحم (٨٥٩٢) ، وسكت عنه ، ونقل المناوي تصحيحه له في فيض القدير (١٨٤٥) ، فلعله سقط من المطبوع ، وسكت عنه الذهبي ، والبيهقي في المعرفة (١/٢٠٨) ، عن أبي هريرة .

(٣) رواه أحمد في المسند (١٨٨٨١) ، وقال مخرجوه : حديث قوي بطرقه وشواهده وهذا إسناد ضعيف ، وابن حبان في أخبار النبي ﷺ (٧٢٢٦) ، وقال الأرناؤوط : حسن بشواهده ، عن عمار ابن ياسر .

(٤) ذكره في فيض القدير (٨١٦١) ، وعزاه لأبي يعلي .

(٥) ذكره في فيض القدير (٨١٦١) ، وعزاه للطبراني .

(٦) رواه أحمد في المسند (١٢٤٦١) ، قال مخرجوه : حديث قوي بطرقه وشواهده وهذا إسناد حسن ، والترمذي في الأمثال (٢٨٦٩) ، وقال حسن غريب من هذا الوجه ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٨٦) ، عن أنس بن مالك .

٦- ما رواه أحمد والبزار، عن حذيفة بن اليمان مرفوعًا: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا - وفي رواية: عضوضًا، يعني: فيه عض وظلم - فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا - ملك فيه قهر وجبروت - فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة» ثم سكت[1] وقد تحقَّق جُلُّ ما أخبر به النبي ﷺ في الحديث من الخلافة الراشدة، والملك العضوض، والملك الجبري، وبقيت الخلافة المنشودة الموعود بها، وهي الخلافة على منهاج النبوة، التي لم تتحقَّق بعد، ولا بد أن تتحقَّق إن شاء الله، ولكن يجب أن نعمل لتحقيقها وإيجادها، وإنما توجد وفقًا لسنن الله بعمل العاملين، وجهود المؤمنين.

وثمَّت أحاديث أخرى كثيرة منها:

٧- «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرُّهم مَن خذلهم ولا مَن خالفهم، حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون للناس»[2].

٨- «لن يبرح هذا الدين قائمًا تقاتل عليه عصابة من المسلمين، حتى تقوم الساعة»[3].

٩- «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحقِّ ظاهرين على من ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»[4].

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٨٤٠٦)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، والبزار في المسند (٢٧٩٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ورجاله ثقات (٥/٢٢٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٦٤١)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧)، وأحمد في المسند (١٦٩١٢)، عن معاوية بن أبي سفيان.

(٣) رواه مسلم في الإمارة (١٩٢٢)، وأحمد في المسند (٢٠٩٨٥)، والطبراني (٢/٢٢٥)، عن جابر بن سمرة.

(٤) رواه أحمد في المسند (١٩٩٢٠)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأبو داود (٢٤٨٤)، والحاكم (٤/٤٥٠)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، كلاهما في الجهاد، عن عمران بن حصين، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٥٩).

obeikandi.com

١٠- «ليدركنَّ المسيح أقوامًا إنهم لمثلكم أو خيرًا ـ ثلاثًا ـ ولن يخزي الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها»[1] .

١١- «بشر هذه الأمة بالسناء والدين ، والرفعة والنصر ، والتمكين في الأرض»[2] .

١٢- «لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض ، حتى يخرج الرجل زكاة ماله ، فلا يجد أحدًا يقبلها منه ، وحتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا»[3] .

١٣- «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود ، فيختبئ اليهودي وراء الحجر ، فيقول الحجر : يا عبد الله ـ أو : يا مسلم ـ هذا يهودي ورائي فاقتله»[4] .

١٤- «لو لم يبقَ من الدنيا إلا يوم ، لطوَّل الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً مني ، يملأ الأرض عدلاً ، كما مُلئت ظلمًا وجَورًا»[5] .

وبعد هذه الأحاديث كلِّها ، لا يستطيع قاعد أن يتعلَّل بحديث أو أكثر جاء في مناسبة خاصة .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (١٩٦٩٠) ، وحسن إسناده ابن حجر في الفتح (٦/٧) ، والشوكاني في نيل الأوطار (١٦٨/٩) ، وقال : ولكنه مرسل . وضعفة الألباني في الضعيفة (٤٣٧٢) ، عن عبد الرحمن بن جبير .

(٢) رواه أحمد في المسند (٢١٢٢٤) ، وقال مخرجوه : حديث صحيح ، والحاكم في معرفة الصحابة (٣١١/٤) ، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي ، وابن حبان في البر والإحسان (٤٠٥) ، وقال الأرناؤوط : إسناده حسن ، والبيهقي في الشعب باب إخلاص العمل لله (٣٣٤/٥) ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٣٣٢) ، عن أبي بن كعب .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري (١٤١٢) ، ومسلم (١٥٧) ، كلاهما في الزكاة ، كما رواه أحمد في المسند (٩٣٩٥) ، وابن حبان في التاريخ (٦٦٨١) ، عن أبي هريرة .

(٤) متفق عليه : رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٢٦) ، ومسلم في الفتن (٢٩٢٢) ، كما رواه أحمد في المسند (١٠٨٥٧) ، عن أبي هريرة .

(٥) رواه أبو داود في المهدي (٤٢٨٢) ، والترمذي في الفتن (٢٢٣١) ، وقال : حديث حسن صحيح ، وصححه الألباني (٣٦٠١) .

• مقاومة حملة التشكيك في الأحاديث الصحاح :

كما يجب على الداعية : أن يكون واعيًا لحملات التشكيك التي شنَّها خصوم الإسلام ، من مبشِّرين ومستشرقين وملحدين على الحديث والسنة . والتي أثَّرت ـ للأسف ـ في بعض مَن ينتمون إلى الإسلام بأسمائهم وأنسابهم بمَن عمل الغزو الفكري عمله في رؤوسهم ، حتى رأينا منهم مَن يطعن في كرام الصحابة ، ومَن يشكِّك في دواوين السنة الأصلية ، حتى صحيح البخاري نفسه ، ومَن يردُّ الأحاديث الصحاح المشهورة اتِّباعًا للهوى ، ومَن يفسِّر الأحاديث على مِزاجه هو ليتَّخذ من ذلك وسيلة للطعن عليها والتشهير بها ، ومَن يردِّد شبهات المستشرقين ترديد الببغاوات وهو لا يدري ، ومَن يردِّدها وهو يعلم ويدري .

ولقد صادف هذا الغزو التبشيري الاستشراقي فراغًا ثقافيًا ، وتخلُّفا فكريًا بالنسبة للإسلام ومصادره وثقافته ، فتمكَّن وعشعش وفرَّخ . وتطاول الجهل بعنقه ورأسه ليفرض نفسه على الأحاديث المتَّفق عليها ، المتلقَّاة بالقَبول من الأمة ، ليردَّها بجرأة وقحة .

حتى زعم بعضهم أن حديث : « بُني الإسلام على خمس »[1] ، وهو من المعلوم في السنة بالضرورة ـ حيث يحفظه الخاص والعام ، والصغير والكبير ، والرجل والمرأة ـ زعم هذا أنه من وضع المستعمرين (كذا) ولماذا؟ لأنه لم يذكر الجهاد!

وردَّ بعض آخر حديث : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود ، فيختبئ اليهودي وراء الحجر ، فيقول الحجر : يا عبد الله ـ أو : يا مسلم ـ هذا يهودي ورائي ، فتعال فاقتله » ، وزعم هذا أن هذا الحديث يخدر المسلمين ؛ لأنه يدفعهم إلى الانتظار حتى يتكلَّم الحجر ليدلَّ على اليهود . ونسي هذا أن كلام الحجر ليس بلازم أن يكون بلسان المقال ، بل ربما كان بلسان الحال ، ومعناه : أن كلَّ ما في الكون سيكون في

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٨) ، ومسلم (١٦) ، كلاهما في الإيمان ، كما رواه أحمد في المسند (٥٦٧٢) ، والترمذي (٢٦٠٩) ، والنسائي (٥٠٠١) ، كلاهما في الإيمان ، عن ابن عمر .

صالح المسلمين يومئذ، بشرط أن يدخل كلٌّ منهم المعركة تحت راية الإسلام والعبودية لله، بحيث يُنادَى: يا عبد الله، أو يا مسلم!

وردَّ ثالث حديث: إلانة النبي القول، وإظهار البشاشة لبعض الجفاة السفهاء، مع قوله فيه قبل أن يلقاه: «بئس أخو العشيرة»[1]. وإنما ردَّه لظنِّه أن هذا من المداهنة أو النفاق، ناسيًا أن هناك فرقًا بعيدًا بين المداراة التي لا يستغني عنها حكيم، وبين المداهنة التي لا يلجأ إليها إلا منافق أو ضعيف. فالمداراة أن تبذل دنياك لمصلحة دينك، والمداهنة أن تبذل دينك لمصلحة دنياك.

ومن الكتب التي يُستفاد منها في ردِّ الحملة الاستشراقية التبشيرية على السنة وكشف زيفها، وفضح عوارها.

١- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي	مصطفى السباعي.
٢- السنة قبل التدوين	عجاج الخطيب.
٣- الأنوار الكاشفة (في الرد على كتاب أبي رية)	عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني.
٤- الحديث والمحدثون	محمد أبو زهو.
٥- دفاع عن أبي هريرة	عجاج الخطيب.
٦- دراسات في الحديث النبوي (باللغة الإنجليزية)	محمد مصطفى الأعظمي.
٧- دفاع عن السنة	محمد أبو شهبة.

• تجنب الأحاديث المشكلة على جمهور الناس لغير ضرورة:

أن يتجنَّب الأحاديث التي تُشكل على جمهور الناس، ولا تسيغها عقولهم وثقافتهم، لأن لها تفسيرات وتأويلات قد لا يهضمونها، وربما كانت أعلى من

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٣٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٩١)، كما رواه أحمد في المسند (٢٤١٠٦)، وأبو داود في الأدب (٤٧٩١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٩٦)، عن عائشة.

مستواهم ، أو تغصُّ بها حلوق بعضهم ، مثل : حديث الذباب[1] ، أو حديث سجود الشمس كلَّ يوم تحت العرش[2] ، أو ما شابه ذلك من الأحاديث .

فليس من فقه الداعية أن يتلوَ على مسامع الناس هذه الأحاديث ، بغير ضرورة ، تقتضيها ، ولا مناسبة توجبها . بل الداعية الفقيه : هو الذي يعني بالأحاديث التي لها صلة بواقع الناس ، ويتحرَّى البعد عن المتشابهات والمشكلات وما لا تبلغه عقول أوساط الناس .

قال الإمام النووي في (التقريب) وهو يتحدَّث عن آداب المُحدِّث مع تلاميذه في درس الحديث : (وليتجنب ما لا تحتمله عقولهم وما لا يفهمونه) .

وقال الإمام السيوطي في شرحه (التدريب على التقريب) : (كأحاديث الصفات ، لما لا يُؤَمن عليهم من الخطأ والوهم والوقوع في التشبيه والتجسيم)[3] .

فقد قال علي : أتحبُّون أن يُكَذَّب الله ورسوله؟! حدِّثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون[4] .

---

(١) رواه البخاري في الطب (٥٧٨٢) ، وأحمد في المسند (٧١٤١) ، وأبو داود في الأطعمة (٣٨٤٤) ، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٦٢) ، وابن ماجه في الطب (٣٥٠٥) ، عن أبي هريرة بلفظ : « إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فإن في إحدى جناحيه داء والأخرى شفاء» .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٩) ، ومسلم في الإيمان (١٥٩) ، كما رواه أحمد في المسند (٢١٣٥٢) ، وأبو داود في الحروف والقراءات (٤٠٠٢) ، والترمذي في الفتن (٢١٨٦) ، والنسائي في الكبري في التفسير (١١١١١) ، عن أبي ذر ، ولفظه : «أن النبي ﷺ قال لأبي ذر حين غربت الشمس : تدري أين تذهب؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها ، يقال لها : ارجعي من حيث جئت ، فتطلع من مغربها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ (يس : ٣٨) .

(٣) مراد السيوطي ـ فيما أحسب ـ ألا تجمع الأحاديث المتفرقة في الصفات ، وتكرر على أسماع عوام الناس بمناسبة وبغير مناسبة ؛ فإن الرسول ﷺ لم يقلها مجتمعة ، ولم يذكرها إلا بمناسبتها .

(٤) رواه البخاري في العلم (١٢٧) ، موقوفا .

وروى البيهقي في الشعب ، عن المقدام بن معدي كرب ، عن رسول الله ﷺ قال : « إذا حدَّثتم الناس عن ربِّهم ، فلا تحدِّثوهم بما يغرب أو يشقَّ عليهم[١] » قال ابن مسعود : ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة[٢] .

قال الخطيب : ويتجنَّب أيضًا في روايته للعوام أحاديث الرخص ، وما شجر بين الصحابة والإسرائيليات)[٣] . وهذا مع البعد الشاسع بين طلاب الحديث في زمنهم وعموم الناس في زمننا .

وقد نختلف مع السيوطي أو الخطيب في بعض ما مثَّل به ، ولكن المبدأ مسلَّم في ذاته ، وهو انتقاء ما يحدِّث به جمهور الناس ، فليس كلُّ ما يُعرف يقال ، وليس كلُّ ما يُقال لشخص يُقال لغيره ، وليس كلُّ ما يُقال في بيئة يصلح أن يُقال في غيرها ، وليس كلُّ ما يصلح قوله في زمن يصلح في كلِّ زمن ، بل يجب أن يراعي الداعية ـ كما يراعي المفتي بل أولى ـ تغيُّر المكان والزمان والحال .

وحسبنا في هذا الحديث الصحيح : « كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّث بكلِّ ما سمع »[٤] وجاء عن الإمام مالك أنه قال : اعلم أنه ليس يسلم رجل حدَّث بكلِّ ما سمع ، ولا يكون إمامًا وهو يحدِّث بكلِّ ما سمع[٥] .

وروى البخاري ، عن أبي هريرة قال : حفظتُ من رسول الله ﷺ وعاءين : فأما أحدهما فبثثتُه فيكم ، وأما الآخر فلو بثثتُه قُطع هذا البلعوم[٦]!

وحدَّث النبي ﷺ ـ حديثًا لمعاذ بن جبل وهو رديف له على ظهر حمار ، عن حقِّ الله على العباد ، وحقِّ العباد على الله ـ فقال له معاذ في آخره : أفلا أبشِّر الناس؟!

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٨١٩٦) والبيهقي في الشعب (٢/٢٨١) .

(٢) رواه مسلم في المقدمة ، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع .

(٣) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للسيوطي (٢/١٣٨) ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، طبعة مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض .

(٤) رواه مسلم في المقدمة (٥) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٢) ، عن أبي هريرة .

(٥) رواه مسلم في المقدمة باب النهي عن الحديث بكل ما سمع .

(٦) رواه البخاري في العلم (١٢٠) ، والبزار في المسند (٨٥١٧) ، عن أبي هريرة .

قال : « لا تبشِّرهم فيتَّكلوا »[1] . ولم يخبر معاذ بهذا الحديث إلا عند موته ، تأثُّمًا . أي تحرُّجًا من كتمان هذا الحديث عن كلِّ الناس ، فيموت بموته .

● الحذر من الأحاديث الموضوعة والواهية :

كما يجب على الداعية : أن يحذر من الأحاديث الواهية والمنكرة ، بل الموضوعة .

وقد حذَّر علماء السنة من رواية الحديث الموضوع ، إلا مع التنبيه عليه ، وبيان أنه موضوع ، ليحذر منه قارئه أو سامعه ، قال النووي : (تحرم روايته مع العلم به ، في أيِّ معنى كان ـ سواء الأحكام والقصص والترغيب وغيرها ـ إلا مبينًا ، أي مقرونًا ببيان وضعه ، وذلك لما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم ، عن سمرة ابن جندب مرفوعًا: « مَن حدَّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين »[2])[3] .

وقد تخصَّص لهذه الأحاديث من علماء الأمة من كشف عُوارها ، ووضح باطلها ، وفضح عورات الوضَّاعين والمزيِّفين ، وقد قيل للإمام عبد الله بن المبارك : هذه الأحاديث الموضوعة ! فقال : تعيش لها الجهابذة[4] .

وقال الإمام أبو الفرج بن الجوزي :

(لمَّا لم يمكن أحد أن يدخل في القرآن ما ليس منه ، أخذ أقوام يزيدون في حديث رسول الله ، ويضعون عليه ما لم يقُل ، فأنشأ الله علماء يذبُّون عن النقل ، ويوضِّحون الصحيح ، ويفضحون القبيح ، وما يخلي الله منهم عصرًا من الأعصار . غير أن هذا الضرب قد قلَّ في هذا الزمان ، فصار أعز من عنقاء مغرب !

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلاً   فقد صاروا أعز من القليل)[5]

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في التوحيد (٧٣٧٣) ، ومسلم في الإيمان (٣٠) ، كما رواه أحمد في المسند (٢١٩٩١) ، عن معاذ بن جبل .

(٢) رواه مسلم في المقدمة ، باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكذابين ، وأحمد في المسند (٢٠١٦٣) ، وابن ماجه في المقدمة (٣٩) ، عن سمرة بن جندب .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٥٩/١) ، طبعة دار الشعب ، القاهرة .

(٤) انظر : تلخيص الحبير (٣٥/١) .

(٥) الموضوعات لابن الجوزي (٣١/١) ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى .

هذا كلام ابن الجوزي ، وقد تُوفي في أواخر القرن السادس سنة ٥٩٧هـ ، فماذا يقول لو أنه عاش حتى شاهد عصرنا؟!

على أيَّة حال ، لا ريب أن الأحاديث الواهية والموضوعة قد كدَّرت صفاء الثقافة الإسلامية ، ودخلت كثيرًا من فروعها ، وتسلَّلت إلى كثير من الكتب ، في مختلف الفنون من التفسير والتصوف والرقائق ، حتى كتب الفقه والأحكام ، وكثير من كتب الحديث نفسها . ومن ثم دخلت على كثير من الدعاة ـ وبخاصة ذوو الطابع الشعبي منهم ـ آفة الاستشهاد بهذا النوع من الأحاديث ، لما فيها من الغرائب والمبالغات التي تُرضي أذواق العوام ، وتستلُّ إعجابهم . وقلَّما أسمع خطيبًا من خطباء الجمع ، أو مدرسًا يدرِّس في مسجد ، أو محدِّثًا يحدِّث في الإذاعة ، إلا يروي حديثًا أو أكثر من هذه الأحاديث المردودة . . . بل كثيرًا ما أقرأ فيما تكتبه بعض المجلات ، بل فيما تحويه بطون بعض الكتب العصرية ، أحاديث تخالف العقول ، أو تباين النقول ، أو تناقض الأصول . وإذا لم تكن الأحاديث موضوعة ، وجدتُها واهية واهنة كبيت العنكبوت .

وكثيرًا ما يستند هؤلاء إلى ما اشتهر من أن الحديث الضعيف تجوز روايته في فضائل الأعمال والقصص والترغيب والترهيب ونحو ذلك .

ونحبُّ أن ننبِّه هنا إلى عدَّة أمور :

الأول : أن هذا الرأي غير متَّفق عليه ، فهناك من الأئمة المعتبرين من رفض الأخذ بالضعيف في كلِّ مجال ، سواء فضائل الأعمال وغيرها . وهو مذهب يحيى ابن معين ، وجماعة من الأئمة ، والظاهر أنه مذهب البخاري الذي دقَّق أبلغ التدقيق في شرائط قَبول الحديث ، ومسلم الذي شنَّع في مقدمة صحيحه على رواة الأحاديث الضعيفة والمنكرة ، وتَركِهم الأخبار الصحيحة . وهو الذي مال إليه القاضي أبو بكر ابن العربي رأس المالكية في عصره ، وأبو شامة رأس الشافعية في عصره أيضًا ، وهو مذهب ابن حزم وغيره .

الثاني : أنه إذا وجد في الصحيح والحسن ما يتضمَّن المعنى المراد تعليمه أو التذكير به ، فلا معنى للجوء إلى الضعيف والواهي ، فقد أغنى الله بالجيِّد عن الرديء ، وقلما يوجد معنى ديني أو خلقي أو توجيهي لا يوجد في الصحاح والحسان ما يوفِّيه . ولكن قصور الهمم ، وضيق العطن ، وأخذ أيِّ شيء يجيء في اليد ، دون معاناة البحث والمراجعة ، جعل الناس يستسهلون رواية الضعيف بإطلاق .

الثالث : أن الحديث الضعيف لا يجوز أن يضاف إلى النبي ﷺ بصيغة الجزم ، قال في التقريب وشرحه : (وإذا أردتَ رواية الضعيف بغير إسناد ، فلا تقُل : قال رسول الله ﷺ : كذا ، وما أشبهه من صيغ الجزم ، بل قل : رُوِي عنه كذا ، أو بلغنا عنه كذا ، أو ورد عنه ، أو جاء ، أو نُقِل عنه ، وما أشبهه من صيغ التمريض ، كروَى بعضهم)[1] . فما اعتاده كثير من الخطباء والوعَّاظ بتصدير الأحاديث الضعيفة بقولهم : قال رسول الله . أمر مردود .

الرابع : أن العلماء الذين أجازوا العمل بالضعيف في مثل الترغيب والترهيب ، لم يفتحوا الباب على مصراعيه لكلِّ ضعيف ، وإنما اشترطوا لذلك شروطًا ثلاثة :

١- ألا يكون الحديث شديد الضعف .

٢- أن يندرج تحت أصل شرعي معمول به ، ثابت بالقرآن أو السنة الصحيحة .

٣- ألا يعتقد عند العمل به ثبوته عن النبي ﷺ ، بل يعتقد الاحتياط .

ومن هذا يتبيَّن أن أحدًا من علماء الأمة لم يفتح الباب على مصراعيه لرواية الأحاديث الضعيفة بلا قيد ولا شرط ، بل اشترطوا الشروط الثلاثة المذكورة ، فضلاً عن الشرط الأساسي ، وهو : أن يكون في فضائل الأعمال ونحوها ، مما لا يترتَّب عليه حكم شرعي .

---

(١) تدريب الراوي (٢٩٧/١) .

opeikandi.com

وينبغي في رأيي أن يضاف إلى هذه الشروط شرطان آخران :

١- ألا يشتمل على مبالغات وتهويلات يمجُّها العقل ، أو الشرع ، أو اللغة . وقد نصَّ أئمة الحديث أنفسهم ، أن الحديث الموضوع يعرف بقرائن في الراوي أو المروي.

فمن القرائن في المروي ، بل من جملة دلائل الوضع : أن يكون مخالفًا للعقل ، بحيث لا يقبل التأويل . ويلحق به : ما يدفعه الحسُّ والمشاهدة . أو يكون منافيًا لدلالة الكتاب القطعية ، أو السنة المتواترة ، أو الإجماع القطعي ـ أما المعارضة مع إمكان الجمع فلا ـ أو يكون خبرًا عن أمر جسيم تتوفَّر الدواعي على نقله بمحضر الجمع ثم لا ينقله منهم إلا واحد !

ومنها : الإفراط بالوعيد الشديد على الأمر الصغير ، أو الوعد العظيم على الأمر الحقير ، وهذا كثير في أحاديث القُصَّاص .

ومما يؤسف له ، أن كثيرًا من المحدِّثين لا يطبِّقون هذه القواعد عندما يروون في الترغيب والترهيب ونحوه . وربما كان لهم عذر من طبيعة عصرهم . أما عقلية عصرنا فلا تقبل المبالغات ، ولا تهضمها ، وربما تتهم الدين ذاته إذا أُلقى عليها مثل هذه الأحاديث .

ومما تمجُّه اللغة : كثير من الأحاديث التي رواها بعض القُصَّاص ، مثل درَّاج أبي السَّمح في تفسير كلمات من القرآن الكريم لها مدلولاتها الواضحة في اللغة ، فروى لها تفسيرات هي غاية في الغرابة والبعد عن المدلول اللغوي .

فمن حديث درَّاج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد مرفوعًا « ويل : واد في جهنم ، يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره »[1] . رواه أحمد والترمذي بنحوه إلا أنه قال : « سبعين خريفا » مع أن « ويل » كلمة وعيد بالهلاك معروفة قبل الإسلام وبعده .

---

(١) رواه أحمد في المسند (١١٦١٢)، وقال مخرجوه : إسناده ضعيف ، والترمذي في التفسير (٣١٦٤)، وقال : هذا حديث غريب ، والحاكم في التفسير (٥٣٤/٢) ، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦١٤٨) .

obeikandl.com

ومثل ذلك ما جاء عند الطبراني والبيهقي، عن ابن مسعود من تفسير «الغي» في قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ (مريم:٥٩)، قال: «واد في جهنم» وفي رواية «نهر في جهنم»[١].

وكذلك ما رواه البيهقي وغيره، عن أنس بن مالك في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ (الكهف:٥٢)، قال: «واد من قيح ودم»[٢].

وأغرب منه ما رواه ابن أبي الدنيا، عن شُفَيٍّ بن ماتع: أن في جهنم واديًا يُدعى أثامًا فيه حيَّات وعقارب[٣] . . . إلى آخره، يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ (الفرقان:٦٨).

وقد ذكر هذه الأحاديث الحافظ المنذري في كتابه «الترغيب والترهيب».

٢- ألا تعارض دليلاً شرعيًّا آخر أقوى منها:

مثال ذلك: الأحاديث الضعيفة التي رُويت في شأن عبد الرحمن بن عوف: أنه يدخل الجنة حبواً بسبب غناه.

فقد يقال: إن مثل هذه الأحاديث تندرج تحت أصل التحذير من فتنة المال، وطغيان الغنى، ولكن يجب أن نذكر أنها تعارض أحاديث صحيحة جعلت عبد الرحمن بن عوف من العشرة المبشَّرين بالجنة[٤]، فضلاً عن وقائع ثابتة، وروايات مستفيضة، تثبت أنه كان من خيار المسلمين، وكبار المتقين، وأنه يمثِّل

---

(١) رواه الطبراني (٩/٢٢٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها ثقات إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه (٦/٤٢٦)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٥٢٧)، وعزاه للبيهقي في البعث.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد صـ٣١١، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (٢١٣٩)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٤٠٥)، وعزاه للبيهقي في البعث.

(٣) ورواه ابن أبي الدنيا في صفة النار (٣٥)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (٢١٤٣).

(٤) رواه أحمد في المسند (١٦٣١)، وقال مخرجوه: إسناده حسن في المتابعات، وأبو داود في السنة (٤٦٤٩)، والترمذي في المناقب (٣٧٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩٥٥)، عن سعيد بن زيد.

الغني الشاكر حقًّا ، ولهذا توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ ، وجعله عمر في الستة أصحاب الشورى ، وجعل لصوته ميزة ترجيحية على غيره عند تساوي الأصوات .

ولهذا قال الحافظ المنذري في (الترغيب والترهيب) : (وقد ورد من غير ما وجه ، ومن حديث جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ ، «أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يدخل الجنة حبوًا لكثرة ماله»[1] ، ولا يسلم أجودها من مقال ، ولا يبلغ منها شيء بانفراده درجة الحسن . ولقد كان ماله بالصفة التي ذكر رسول الله ﷺ : «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[2] ، فأنى تنقص درجاته في الآخرة ، أو يقصر به دون غيره من أغنياء هذه الأمة؟ فإنه لم يرد هذا في حقٍّ غيره ، إنما صحَّ سبق فقراء هذه الأمة أغنياءها على الإطلاق[3] ، والله أعلم) .

● من أين تتسرب الأحاديث الضعيفة إلى الدعاة؟

وإنما تتسرَّب الأحاديث الموضوعة الساقطة إلى الدعاة ، لاعتمادهم على كتب لا تُعنى بانتقاء الأحاديث التي توردها وغربلتها ، وربما لا تعزوها مجرَّد عزو إلى مَن خرَّجها من أصحاب الكتب الحديثية . مع أن هذا العزو لو حصل لا يكفي في معظم الكتب ، حيث لا يلتزم مؤلفوها الاقتصار على الصحيح أو الحسن .

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٤٨٤٢) ، وقال مخرجوه : حديث منكر باطل ، والطبراني (١/١٢٩) ، والبزار في المسند (٦٨٩٩) ، وقال الشوكاني : رواه أحمد وفي إسناده عمارة وهو يروي المناكير ، وقد قال أحمد هذا الحديث : كذب منكر ، قال ابن حجر : لم يتفرد به عمارة بن زاذان فقد رواه البزار من طريق أغلب بن تميم ، وأغلب شبيه عمارة بن زاذان في الضعف لكن لم أر من اتهمه بالكذب ، وقد روى من طريق أخرى فيها متروك ، وقال النسائي : الحديث موضوع ، عن عائشة .

(٢) رواه أحمد في المسند (١٧٧٦٣) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح على شرط مسلم ، وابن حبان في الزكاة (٣٢١٠) ، وقال الأرناؤوط : إسناده قوي على شرط مسلم ، والبخاري في الأدب المفرد كتاب حسن الخلق (٢٩٩) ، والبيهقي في الشعب باب التوكل (٢/٩١) ، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٧٥٦) ، عن عمرو بن العاص .

(٣) رواه أحمد في المسند (٩٨٢٣) ، وقال مخرجوه : صحيح ، وابن ماجه في الزهد (٤١٢٢) ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣٢٦) ، عن أبي هريرة بلفظ : «يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمس مائة سنة» .

فترى الأكثرين ينقلون من كتب الوعظ والتصوف والتفسير ونحوها ، ظانِّين أن هذا يُعفيهم من البحث في درجاتها ، والاطمئنان إليها ، بأن تكون ـ على الأقل ـ في أدنى درجات القَبول . أما كتب الوعظ والرقائق ، فأنصح لقارئها ألا يعتمد عليها في نقل الحديث ، لأنها تجمع السمين والغث ، والجديد والرث ، ولا تدقِّق فيما تروي من أحاديث أو آثار ، أو قصص وأخبار ، بدعوى أنها لا يتعلَّق بها حكم شرعي .

حتى حفَّاظ الحديث الناقدون ، إذا أَلَّفوا في الوعظ وما يتعلَّق به ترخَّصوا وتساهلوا إلى حدِّ التفريط فيما يرْوونه في بعض الأحيان .

هكذا وجدنا الإمام ابن الجوزي صاحب (الموضوعات) و(العلل المتناهية) وغيرها ، يرخي لنفسه العنان في كتابه (ذم الهوى) ، وغلبت فيه عاطفة الواعظ على عقلية الناقد الحافظ . وكذلك الحافظ الذهبي رأيناه يتساهل في كتابه (الكبائر) .

ونصيحتي لمَن أراد أن يأخذ الحديث من كتب التفسير : أن يرجع إلى ابن كثير ، فهو حافظ متقن ناقد ، يُعنى بتخريج ما يورده ، والتعقيب عليه ـ غالبًا ـ بالتوثيق أو التضعيف .

ومن أخذ عن (إحياء) الغزالي عليه أن يرجع إلى تخريج الحافظ العراقي لأحاديثه ، وهو مطبوع مع الإحياء ، ومراجعته ضرورية لكلِّ قارئ للكتاب ، أو ناقل عنه بعض ما أورد من حديث . وبذلك يعرف قيمة ما يأخذ من أحاديث .

ومَن أخذ من (الترغيب والترهيب) للمنذري ، يجب عليه أن يقرأ مقدِّمته ، التي يبيِّن فيها أنواع الأحاديث التي يذكرها ، والمصطلحات التي يستخدمها لبيان درجاتها قوَّة وضعفا ، حتى لا ينقل الضعيف الشديد الضعف ، وهو يحسب أنه حسن أو صحيح ، لجهله باصطلاح صاحب الكتاب .

ومن أخذ عن (الجامع الصغير) للسيوطي ، أنصحه أن يراجع شرحه الكبير (فيض القدير) أو المختصر (التيسير) للمناوي ، ولا يكتفي بإشارات الجامع : (ص) للصحيح ، و(ح) للحسن ، و(ض) للضعيف ، لكثرة ما أصابها من التحريف على يد النسَّاخ أو الطابعين ، ولأن للشارح تعقيبات واستدراكات على صاحب الجامع ينبغي أن يُنتفع بها . وقد قام العلامة الشيخ محمد ناصر الألباني بفصل صحيح الجامع

الصغير وزيادته (الفتح الكبير) عن ضعيفه ، وصدر كلٌّ منهما في عدَّة أجزاء ، فخدم بذلك الكتاب وطالبي الحديث أيُّما خدمة .

ومن كتب السنة التي ينبغي الاستفادة منها في هذا المقام ، ما أُلف لتخريج أحاديث بعض الكتب المشهورة في فنونها ،ممَّن لا يلتزم أصحابها تخريج ما يروونه ، سواء أكانت كتب تفسير مثل (تخريج أحاديث الكشاف) للحافظ ابن حجر ، أو كتب تصوف مثل (تخريج أحاديث الإحياء) للحافظ العراقي ، أو كتب فقه مثل (تخريج أحاديث الهداية) للحافظ الزيلعي ، وأحاديث (الاختيار) للعلامة قاسم ، وأحاديث شرح الرافعي الكبير لابن حجر المسمَّى (تلخيص الحبير) .

ومن كتب السنة المهمَّة : ما يتعلَّق بالأحاديث الشائعة المشتهرة على ألسن الناس وبيان مَن أخرجها ، ودرجتها من الصحة أو الحسن أو الضعف أو الوضع ، مثل (المقاصد الحسنة) للسخاوي ، و(تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث) لابن الديبع الشيباني ، و(كشف الخفاء ومزيل الإلباس فيما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس) للعجلوني ، وهو أجمعها وأوفاها ، وهو مرتَّب على حروف المعجم .

ومن الكتب التي لا يُستغنى عنها : كتب (الموضوعات) أي الأحاديث المختلفة المفتراة على رسول الله ﷺ : مثل (الموضوعات) لابن الجوزي ، (واللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة) للسيوطي ، و(تحذير الخواص من أكاذيب القصاص) له ، و(المنار المنيف في الصحيح والضعيف) لابن القيم ، و(الموضوعات الكبرى) للشيخ على القاري ، و(الموضوعات الصغرى) له أيضًا ، وهو المسمَّى (المصنوع في معرفة الموضوع)، و(تنزيه الشريعة المرفوعة من الأحاديث الشنيعة الموضوعة) لابن عراق ، و(الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة) ، للشوكاني ، و(الأسرار المرفوعة) للّكنوي ، و(الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها في الأمة) للألباني [1] .

* * *

(١) وانظر : كتبنا عن السنة (المدخل لدراسة السنة النبوية) نشر مكتبة وهبة ، و(كيف نتعامل مع السنة) و(السنة مصدرا للمعرفة والحضارة) نشر دار الشروق .

الـفـقـه

ولا بد للداعية من قدر مناسب من الثقافة الفقهية ، بحيث يعرف أهمَّ الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات والآداب ، وما لم يعرفه أو يستحضره يكون قادرًا على مراجعة حكمه في مصادره ومظانِّه الموثَّقة . وذلك مهمٌّ للداعية من عدَّة نواح :

أولاً : ليستطيع أن يجيب السائلين عن الحلال والحرام وشئون العبادة والأسرة ونحوها ، مما يُكثر الناس السؤال عنه ويلجأون عادة إلى الدعاة يلتمسون منهم الفتوى في ذلك . فمَن لم يكن متضلِّعًا من الفقه سكت أو تهرَّب ، وفي ذلك إضعاف لموقفه وتأثيره . أو أفتى بغير علم ، وهذه هي الطامة كما في حديث الصحيحين ، عن ابن عمرو مرفوعًا : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبقَ عالم اتخذ الناس رؤوسًا جهالاً ، فسئلوا فأفتَوا بغير علم ، فضلُّوا وأضلُّوا »[1] .

ثانيًا : ليمكنه تصحيح ما يقابله من أخطاء ، وتقويم ما يواجهه من انحرافات ، في ضوء الأحكام الشرعية ، فإذا رأى بعض البدع الفاشية ، أو المنكرات السائدة ، أو الأخطاء الدينية الشائعة ، واجهها بعلم وفقه ، لا بمجرَّد غضب وعاطفة . ومعنى هذا : أنه لا ينكر أمرًا مجتَهدًا فيه بين الأئمة ، إذ لا إنكار في المسائل الاجتهادية ، إلا في حدود معينة . وكذلك ينبغي ألا ينكر المنكر إذا ترتَّب عليه منكر أكبر منه ، وقد حكى ابن القيم ، عن شيخ الإسلام ابن تيمية ، أنه مرَّ على قوم من التتار جلسوا يشربون الخمر ، فأنكر عليهم بعض أصحابه ، فقال : دعهم وما هم فيه ، فإن الله إنما حرَّم الخمر ، لأنها تصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء تصدُّهم الخمر عن سفك الدماء ، ونهب الأموال[2] !

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١٠٠) ، ومسلم (٢٦٧٣) ، كلاهما في العلم ، كما رواه أحمد في المسند (٦٥١١) ، والترمذي (٢٦٥٢) ، والنسائي في الكبرى (٥٨٧٦) ، كلاهما في العلم ، وابن ماجه في المقدمة (٥٢) ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم (٣/٥) ، طبعة دار الجيل ، بيروت .

كما ينبغي أن يقدِّم الأهم على المهم ، والكلِّي على الجزئي ، والفرض على النافلة .

ثالثًا : ليعمل على تطعيم عظاته ودروسه بالأحكام المهمَّة ، التي يحتاج إليها الناس في وقتها ، فإذا تحدَّث مثلا عن الزكاة أو الصيام أو الحج وغيرها ، لم يقتصر حديثه على محض الترغيب والترهيب ، بل يحرص على إعطاء سامعه أو قارئه خلاصة الأحكام الأساسية لكلٍّ منها بأسلوب سهل قريب مقبول . وبذلك يستنير الناس ، ويتعرَّفون على أحكام دينهم بيسر وسهولة . فالداعية الناجح هو الذي يعظ الناس ويفقِّههم ، بحيث لا يطغى وعظه على فقهه ، ولا فقهه على وعظه . ونوصي الداعية هنا بعدَّة أمور :

١- أن يحرص على ربط الأحكام بأدلَّتها من الكتاب والسنة ، وما أرشد إليه من اعتبارات أخرى . كالإجماع والقياس والاستصلاح والاستحسان ، وغيرها من أدلَّة ما لا نصَّ فيه . ويعرِّفون الفقه بأنه : معرفة الأحكام الشرعية المأخوذة من أدلَّتها التفصيلية . فلا فقه بلا دليل . على أن الدليل يكسو الحكم أو الفتوى نورا وجمالا . ويمكنه هنا الانتفاع بكتب فقه الحديث ، مثل : (الإحكام) لابن دقيق العيد ، و(نيل الأوطار) للشوكاني ، و(سبل السلام) للصنعاني ، و(الروضة الندية) لصديق حسن خان ، وكتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم وغيرها . ومثل ذلك : كتب الفقه التي تُعنى بالتدليل والترجيح ومناقشة الآخرين مثل : (المغني) لابن قدامة الحنبلي ، و(المجموع) للنووي الشافعي ، و(الاستذكار) لابن عبد البر المالكي ، و(المحلى) لابن حزم الظاهري ، و(الروض النضير) للسياغي الزيدي .

٢- وإذا كان الداعية ملتزما بمذهب من المذاهب الفقهية المتبوعة ، فلا يمنعه هذا من التعرُّف على أدلَّة مذهبه ليطمئنَّ قلبه ، ولا مانع من ترك المذهب في بعض المسائل التي يشعر بضعف أدلَّتها إلى مذهب يرى أنه أسعد بالدليل من مذهبه ، وقد رُوي عن الأئمة المتبوعين جميعًا قولهم : إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي .

ولا يجوز للداعية أن يَدَع السنة الصحيحة الصريحة بحجَّة تقيُّده بمذهبه ، كما رأينا بعض خطباء الجمعة على المنابر يأمرون الداخل إلى المسجد بالجلوس ، إذا

أراد هو صلاة ركعتين تحيَّة للمسجد . هذا مع ما جاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : جاء سُلَيك الغَطَفَانى يوم الجمعة ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر ، فقعد سُليك قبل أن يصلِّي . فقال له النبي ﷺ : «أركعت ركعتين؟» . قال : لا . قال : «قم فاركعهما» [1] .

٣- ويحسن بالداعية أن يتعرَّف على المذاهب الأخرى ، وبخاصة التي يتبعها بعض مَن يدعوهم . فإن كان مالكيا وهو في بيئة حنبلية ، أو كان حنبليا أو شافعيا وهو في بيئة حنفية ، أو العكس ، فينبغي له أن يلمَّ بأهم ما يتميَّز به مذهب البلد عن مذهبه ، حتى لا ينكر على الناس ما لا يجوز أن يُنكَر .

فالشافعي المحصور في مذهبه ، إذا حلَّ في بيئة مالكية ، قد يستغرب من أهلها أنهم لا يتطهَّرون من بول وروث ما يؤكل لحمه ، أو يرسلون أيديهم في الصلاة أو نحو ذلك ، فلا يتكلَّم في ذلك إلا وهو عالم بمذهب القوم ومأخذه من الاستدلال .

ومثل ذلك الحنفي الذي يحلُّ في بلد شافعي أو حنبلي : فيجد الناس يرفعون أيديهم عند الركوع ، وعند الاعتدال منه ، أو يجدهم يقرأون الفاتحة خلف الإمام ، ويرفعون أصواتهم بالتأمين ، ولا يسلِّمون إلا بعد أن يفرغ الإمام من تسليمتيه إلخ ، فقد يبادر إلى إنكار ما عليه القوم ، وهو لا يعلم أن هذا هو مذهبهم الذي يتعبَّدون على أساسه .

وأنصح الداعية أن يقرأ ـ على الأقل ـ كتابا في الفقه المقارن ، مثل (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) لابن رشد .

٤- ينبغي على الداعية أن يقتدي بالقرآن والسنة في تعليل الأحكام ، وبيان حكمها وثمراتها في الأنفس والحياة ، وربطها بالفلسفة العامة للإسلام ، حتى تقع من النفس موقع القَبول .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٩٣٠) ، ومسلم (٨٧٥) ، كلاهما في الجمعة ، كما رواه أحمد في المسند (١٤٤٠٥) ، وأبو داود في الصلاة (١١١٥) ، عن جابر .

وقد وجدنا القرآن الكريم يذكر الحِكَم والمنافع من وراء العبادات ذاتها ، مع أن الأصل فيها التعبُّد والامتثال لأمر الله تعالى ، كقوله في الصلاة : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ (العنكبوت:٤٥)، وفي الزكاة : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (التوبة:١٠٣) وفي الصيام : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣) ، وفي الحج : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾ (الحج:٢٨) .

فإذا كان هذا في الأمور التعبُّدية ، فكيف بغيرها من المعاملات وشئون الحياة؟

فهذا مطلوب في كلِّ حين لكن طلبه في عصرنا ألزم ، والحاجة إليه أوكد ، لأن كثيرا من الناس لم يعد يغلب عليهم التسليم ، وإنما يغلب عليهم البحث والتساؤل لمعرفة الأسرار والعِلل ، ورحم الله امرءًا عرَف زمانه ، وخاطب أهله بما يعرفون .

• محذورات ينبغي التنبُّه لها :

وأودُّ أن أنبِّه هنا في مقام تعليل الأحكام إلى بعض المحذورات ، التي يتورَّط فيها بعض الدعاة . فمن هذه المحذورات :

• المبالغة في تعليل العبادات :

المبالغة في تعليل العبادات بأمور دنيوية ، وربطها بها ربط العِلَّة بالمعلول ، مع الغفلة عن حقيقة كبيرة يجب التنبيه عليها ، وهي أن العبادات مطلوبة طلب الغايات والمقاصد ، لا طلب الأدوات والوسائل ، فهي مرادة لذاتها ، بغضِّ النظر عما وراءها من منافع وثمرات . بل هي الغاية من خلق المكلَّفين ، كما قال تعالى :﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦) . بل المقصود الأول من خلق هذا العالم كلِّه ، علويِّه وسفليِّه : أن يعرف الناس ربَّهم ، بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ (الطلاق:١٢) .

والمبالغة في هذا الجانب قد تؤدِّي ببعض الناس إلى أن يقول : إذا كان هدف العبادات تربية الضمائر ، وتزكية الأنفس ، وتقويم الأخلاق . فعندنا وسائل أخرى توصِّلنا إلى هذا الهدف . وقد يقول بعض آخر ما قاله بعض الفلاسفة من قبل . ممن زعموا أن العبادات إنما يحتاج إليها العامة. أما الخاصة ـ يعنون أهل الفلسفة ـ فهم مستغنون عنها، لارتقاء أنفسهم بالمعرفة والوصول إلى الحقائق ـ وعندهم أن كمال النفس في مجرَّد العلم بالمعقولات ! ـ فلم تعد أنفسهم أنفسا بهيمية أو سبعية ، بل أنفسا ملكية. بخلاف أنفس العوام أو الجماهير التي تغلب عليها الحيوانية أو السبعية، فهي التي تحتاج إلى العبادات لتتهذَّب وتتزكَّى .

ودخل في ذلك طائفة من ضلاَّل المتصوفة، ظنُّوا أن غاية العبادات هو حصول المعرفة، فإذا حصلت سقطت العبادات ، وهو خطأ وضلال بإجماع المسلمين ، فإن العبادات المفروضة لا تسقط عن أحد ، وإن بلغ ما بلغ، ما دام عقله حاضرا . وهذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام(١) .

● التعليل بأمر غير جامع ولا مانع :

ومن المحذورات : أن يعلِّل الحكم الشرعي بأمر غير جامع ـ بمعنى أنه لا ينطبق على كلِّ الحالات ـ ولا مانع ،بمعنى أن ينطبق على غير المعلَّل مما لم يأخذ حكمه .

مثال ذلك : تعليل تحريم لحم الخنزير بأنه يأكل القاذورات ، فقد يردُّ رادٌّ بأن هذا لا ينطبق إلا على الخنازير السيئة التغذية ، أما الخنازير التي تربَّى في حظائر خاصة ، ويشرف عليها مختصُّون يعنون بأمرها ، فلا يتَّفق معها هذا التعليل .

وكذلك إذا قال قائل : إنما حرم الخنزير ، لأن اعتياد أكله يورث فقدان الغَيرَة على النساء والحرمات ، كما هو مشاهد لدى الأوربيين الذين يدينون بالمسيحية . فهذا التعليل قد يُنقض بأن ذلك قد يكون مردُّه للبيئة والتربية أكثر من ردِّه إلى لحم الخنزير ، بدليل أن النصارى في صعيد مصر وفي البلاد الشرقية عامة لا تنقصهم الغَيرَة .

كما أن اليهود في الغرب ، وهم يحرِّمون الخنزير ، يسلكون في أمر الغَيرَة ما يسلكه مواطنوهم من المسيحيين .

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/٢٧٠، ٢٧١)، بتحقيق د. محمد رشاد سالم.

ونحو ذلك : أن تجعل علّة التحريم ما اكتشف من ديدان شديدة الخطر على صحَّة الإنسان ، كالدودة الشريطية أو الوحيدة . فقد قالوا : إن هذه الديدان توجد في لحوم الأبقار أيضا ، وقد أحلَّ الشرع أكلها !

ولهذا لا تجوز للداعية المجازفة بالتعليل في مثل هذه الأمور ، ما لم يكن تعليلا ثابتا محكما مطَّردا في كلِّ الأحوال ، تقوم عليه الأدلَّة العلمية الناصعة ، التي لا مطعن فيها .

وإلا فحسب الداعية أن يقول : إن الله لم يحل إلا طيِّبا ، ولم يحرِّم إلا خبيثا ، ولم يشرع شيئا إلا لحكمة ، علمها مَن علمها ، وجهلها مَن جهلها ، وعدم العلم بها لا ينفي وجودها ، فإن علمنا أعجز من أن يحيط بكلِّ حكمة الله تعالى في شرعه أو في خلقه .

وإذا كان العلم البشري بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا من نزول القرآن قد اكتشف في لحم الخنزير ديدانا خطرة لم يكن يعلم أحد بها يوم قال القرآن في لحم الخنزير: ﴿ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ ﴾ (الأنعام:١٤٥) . فما يدرينا ماذا سيكشفه العلم في الغد القريب أو البعيد ؟

على أن هناك حكمة جليلة في إخفاء الله تعالى بعض حِكَمه وأسرار شرعه وخلقه عنَّا نحن المكلفين ، وذلك ليتمَّ الابتلاء ، وتظهر حقيقة العبودية للخالق ، ويعرَف مَن يتَّبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، ويتبيَّن مَن يطيع ربَّه ، ومَن لا يطيع إلا عقله ، فهنا مفرق طريق بين المؤمن وغير المؤمن .

والمؤمن يقول إذا ثبت الأمر أو النهي من ربَّه : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥) ، فهم الحكمة الجزئية في هذا الأمر أم لم يفهم ، أدرك السرَّ أم لم يدرك . حسبه أن يؤمن أن الله لا يأمره إلا بما ينفعه ، ولا ينهاه إلا عما يضرُّه ، ولو كان لا يمتثل لأمر إلا لما يدرك عقله تفاصيل الحكمة فيه ، لكان حينئذ مطيعا لعقله لا لربِّه .

أما غير المؤمن ، فلا يُستبعَد منه أن يأتيه الأمر فيقول : سمعنا وعصينا . وذلك لأنه لم يلتزم بحقيقة العبودية لله ، والطاعة لرسوله ، وإنما يقف من ربِّه موقف الندِّ للندِّ .

فعلى الداعية أن ينتبَّه لهذا الجانب من عِلل الأحكام ، ولا يذكر منه إلا ما كان جامعا ومانعا ، وقام عليه البرهان ، وإلا عرَّض نفسه للاعتراضات من هذا وذاك ، ومن هنا وهناك .

وقد وقف أحد الدعاة يتحدَّث عن جريمة الزنى ، وهي إحدى الكبائر في الإسلام ، فحصر حكمة التحريم في منع اختلاط الأنساب .

وهنا قام له مَن يقول : لا حرج إذن على الحامل أن تزني ، ولا حرج على المرأة العقيم ، ولا على مَن تتناول أقراص منع الحمل ، إذ لا خوف على واحدة من هؤلاء أن تحمل وتلد ، حتى يحدث اختلاط الأنساب . بل المرأة الأيِّم ـ التي لا زوج لها بكرا أو ثيِّبا ـ إذا اتَّخذت خدنا لها لا يباشرها غيره ، فإنها إذا حملت منه يكون نسب حملها معروفا غير مختلط ولا مجهول .

ومن هنا كان الحذر واجبا في إلقاء هذا النوع من الحكم والتعليلات . فلا تُقال للناس إلا بعد دراسة وتثبُّت ، وإلا اكتفى بالحكم الإجمالية العامة ، اقتداء بالقرآن في مثل قوله في تعليل النهي عن الزنى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ (الإسراء:٣٢).

ومثل ذلك القول بأن الربا إنما حُرِّم ، لأنه استغلال لحاجة الفقراء لمصلحة الأغنياء .

فهذا التعليل إنما ينطبق على صورة معيَّنة من الربا ، عرَفها الناس في كثير من الأزمان ، ولا يزالون يعرفونها إلى اليوم ، وهي صورة الإنسان الضعيف الذي تنزل به حاجة لنفسه أو لأسرته ، فلا يستطيع سدَّها إلا بالاستقراض والاستدانة ، ولا يجد مَن يقرضه إلا المرابي الغني ، الذي يشترط عليه أن يعيد العشرة أحد عشر أو اثنى عشر أو أقل أو أكثر .

وهذه صورة محدودة تكاد تنقرض .

ويكاد يكون الذين يستقرضون الآن من المصارف وبيوت المال هم الأغنياء وكبار التجار ، الذين يريدون أن يوسِّعوا تجاراتهم ، أو يزيدوا من ثرواتهم ، يستقرضون مئات الألوف بل الملايين ، لبناء العمارات الشاهقة ، أو استيراد السلع المربحة .

وقد يودع بعض الناس من محدودي الدخل شيئا مما يدَّخرونه بعد نفقاتهم لدى المصارف (البنوك) فتعطيهم مقابل ذلك فوائد محدَّدة ٥٪ أو أقل أو أكثر . فآخذ

الفائدة ـ وبعبارة أخرى : آكل الربا ـ هنا هو الفرد الضعيف ، ومعطي الفائدة ـ ومؤكل الربا ـ هو المصرف (البنك) القوي الغني المتمكِّن .

وهذا ما جعل بعض المشتغلين بالفقه في عصرنا ـ الذين حصروا حكمة التحريم فيما أشرنا إليه ـ يجترئون على القول بأن الفوائد في عصرنا ليست هي الربا الحرام ، لأنها في الصورة المذكورة : استفادة للفقراء من الأغنياء أصحاب البنوك . ولهذا كان لا بد من تعليل آخر ، وتوجيه آخر . وأوجه التعليل هنا كثيرة تراجع في مظانِّها[1] .

● الاقتصار على التعليلات المادية :

من المحذورات في ذكر الحِكَم والعلل : الاقتصار على التعليل بالأمور المادية الحسية ، وخصوصا فيما يتعلَّق بالعبادات الشعائرية ، كالوضوء والصلاة والصيام والحج ونحوها .

فالوضوء في نظر بعض الذين يتحدَّثون عن الإسلام أو يكتبون : حكمته النظافة ، والصلاة في نظر هؤلاء : حكمتها تمرين الجسم على الرياضة والحركة واتباع النظام ، والصيام في نظرهم : إنما فرض لإراحة المعدة شهر في كلِّ عام .

والحج في نظرهم ليس إلا رحلة كشفية ، للتدريب على احتمال المشاقِّ .

وجهل هؤلاء أن مثل هذه التعليلات تفتح عليهم أبوابا لا يقدرون على إغلاقها ، فقد يقول لهم قائل : إننى أستطيع أن أحقِّق النظافة بغير الوضوء .

وقد يقول ثان : أستطيع أن أمرِّن جسمى رياضيا بغير الصلاة ، بالتمرينات المنظَّمة المدروسة ، يشرف عليها مدرِّبون فنيون .

ويقول ثالث : إننى قادر على إراحة المعدة بغير الصيام .

ويقول رابع : إننى أستطيع أن أقوم برحلات كشفية أتدرَّب فيها على المشقَّات ، ولكن بغير الحج إلى بيت معلوم في زمن معلوم .

وهكذا ، تكون هذه التعليلات ـ إذا لم تُصَغ صياغة دقيقة حكيمة موزونة ـ سلاحا في أيدي الذين يريدون أن يتفلَّتوا من تكاليف الدين وشعائره .

---

(١) يراجع في ذلك على سبيل المثال ما كتبه : دكتور محمد عبد الله دراز ، ومحمد أبو زهرة ، وسيد قطب ، وأبو الأعلى المودودى ، ودكتور عيسى عبده ، ودكتور محمود أبو السعود ، رحمهم الله ، وغيرهم من الكتاب المسلمين .

وأولى بنا أن ننهج نهج القرآن في إعطاء الأوليَّة والأولوية للتعليل بالأمور الدينية الرُّوحية .

ففي الصلاة يقول :

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ (طه:١٤) .

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ ﴾ (العنكبوت:٤٥)، أي أن اشتمال الصلاة على ذكر الله أكبر وأعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر .

وفي الصيام يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣) ، فجعل التقوى هي الغاية أو الثمرة من الصيام .

وفي الزكاة يقول :

﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة:١٠٣،١٠٤) ، فحكمة الزكاة هنا - وهي فريضة مالية - حكمة نفسية روحية : تطهير وتزكية ، ودعاء وسكينة ، وقبول من الله الذي يأخذ بيمينه الصدقات .

وفي الحج يقول :

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ ﴾ (الحج:٢٧،٢٨) ، والمنافع المشهودة المذكورة في الآية الكريمة أوسع وأعمق من أن تقتصر على الجانب المادى وحده . كيف وقد جاء في الحديث : « إنما جعل الطواف بالبيت ، وبين الصفا والمروة ، ورمي الجمار ، لإقامة ذكر الله »[(١)].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٤٤٦٨)، وقال مخرجوه : إسناده حسن ، وأبو داود في المناسك (١٨٨٨)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود ، والترمذي في الحج (٩٠٢) ، وقال : حسن صحيح ، عن عائشة .

وفي الهدي والذبائح يقول :

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ (الحج:٣٧) .

وأكثر من ذلك نجد القرآن الكريم حين يعلِّل للنواهي التي نهى الله عنها ـ وكثير منها يتعلَّق بنواهٍ اجتماعية واقتصادية ـ لا يُعنى إلا بإبراز الجانب الديني الذي يشمل كلَّ الأحوال ، ويعمُّ كلَّ الأشخاص ، في كلِّ الأوقات ، وكلِّ البيئات .

وذلك مثل قوله في النهي عن الخمر إنها : ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ (المائدة:٩٠)

ثم يذكر تعليلا آخر فيقول : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (المائدة:٩١) .

فلم يهتمَّ بذكر أضرارها على الجسم والعقل ، وإن كان ذلك معروفا غير منكور ، حتى لا يقول قائل : إنما أشربها بقدر ، أو بعد استشارة الطبيب أو نحو ذلك .

وقوله تعالى في تعليل النهي عن التبذير : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ (الإسراء:٢٦ ، ٢٧) .

وفي تعليل النهي عن قتل الأولاد : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾(الإسراء:٣١) .

وفي تعليل النهي عن قربان الزنا : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾(الإسراء:٣٢) .

وفي تحريم الاستسقام بالأزلام : ﴿ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ (المائدة:٣) .

وفي تحريم أكل أموال اليتامى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ (النساء:٢) .

وينبغي أن يكون هذا هو منهج الداعية في تعليل الأوامر والنواهي ، إذا كان خطابه مع المؤمنين بالإسلام ، فحسبه أن يشير إلى أن فعل هذا الأمر يجلب رضا الله ومثوبته ، وأن اجتناب ذاك يجلب سخط الله وعقوبته . ولهذا يكتفي القرآن هنا بأن يقول للمؤمن : إنه رجس ، أو فسق ، أو خطأ ، أو حوب كبير ، أو فاحشة ، أو سبيل سوء[1] .

---

(١) وقد فصلت هذا النهج في كتابي (نحو فقه ميسر معاصر) وسرت عليه في كتبي (فقه الطهارة) و(فقه الصيام) وغيرهما . نشر مكتبة وهبة .

• علم أصول الفقه :

ولا بد للداعية أن يلمَّ بعلم أصول الفقه حتى يعرف الأدلَّة المتَّفق عليها بين فقهاء الأمة وهي الكتاب والسنة ، والتي اتَّفق عليها جمهورهم وهي : الإجماع والقياس ، والتي اختلفوا فيها بعد ذلك بين مثبت ونافٍ ، ومضيِّق وموسِّع ومتوسط ، وهي أدلَّة ما لا نصَّ فيه ، من الاستحسان ، والاستصلاح ، والاستصحاب ، وشرع مَن قبلنا ، وقول الصحابي ، وما إلى ذلك مما تفرَّقت فيه وجهات النظر .

وإذا كان الكتاب والسنة هما الأصلين والمصدرين الأساسيين ، فكيف تُستنبط منهما الأحكام؟ ومَن يجوز له الاستنباط أو يجب عليه ؟ ومَن يحلُّ له التقليد أو يحرم عليه ؟

هنا نجد مسائل كثيرة ، بعضها اتَّفقوا عليه ، وبعضها اختلفوا فيه ، ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ (البقرة:١٤٨). ولا بد للداعية أن يعرف الراجح والمرجوح ؛ ليأخذ بالراجح ، ويعذر الآخذين بالمرجوح ، أو يقنعهم إذا استطاع .

وليس من الضروري للداعية أن يقرأ المطوَّلات في الأصول ، فهذا شأن المتخصِّص. وحسبه أن يقرأ ما يعطيه فكرة ملائمة مثل (جنة الناظر) لابن قدامة ، أو (إرشاد الفحول) للشوكاني وهو أوسع ، أو كتابا حديثا مثل (أصول الفقه) للخضري ، أو (علم أصول الفقه) لخلَّاف وهو كتاب جيد مفهوم . ويحسن بالداعية تتمَّة لهذا أن يعرف نبذة عن تاريخ الفقه الإسلامي ونشأة المذاهب وتطوُّرها . وغلبة الجمود والتقليد على الاجتهاد والاستنباط في الأعصر الأخيرة ، ويكفي في هذا (تاريخ التشريع الإسلامي) للخضري ، أو (خلاصة تاريخ التشريع الإسلامي) لخلَّاف .

• علم العقيدة :

ولا نريد بدراسة العقيدة ، منظومات المتأخرين في علم التوحيد وشروحها ، مثل : (الجوهرة) ، أو (الخريدة) ونحوهما ، ولا دراسة (العقائد النسفية) وما يتبعها من شروح وحواشٍ ، ولا دراسة المطوَّلات الكلامية مثل : (شرح المقاصد) ، أو (شرح

المواقف) وما شابههما ، فلم يعُد كثير من مباحث هذه الكتب يحتاج إليه العقل المعاصر أو يستسيغه ، ولم يعد يكفي للردِّ على شبهات الفلسفة الحديثة ، وما تثيره من مشكلات فكرية . لهذا يجب توفير الجهد الذهني الضخم الذي يُبذل في هضم هذه الكتب ، وحلِّ ألغازها ، وفكِّ طلاسمها ، لما هو أجدى في الدفاع عن العقيدة وتثبيتها .

هذا بالإضافة إلى أن المباحث الكلامية ـ على عمقها وتعب الذهن في فَهمها واستيعابها ـ لا تكوِّن عقيدة ، كلُّ مهمتها الدفاع عن عقيدة تكوَّنت بالفعل ، وردِّ الشبهات عنها . وأكثر من ذلك أن مباحث علم الكلام قد تأثَّرت بالتفكير اليوناني ، والأسلوب اليوناني في معالجة شئون العقيدة .

ولهذا هاجم أئمة السلف علم الكلام وأهله ، وشدَّدوا الحملة عليه . لهذا نريد من دراسة العقيدة ، مراعاة ما يلي :

١- أن يكون كتاب الله تعالى ، وما يبيِّنه من صحيح السنة ، هو المصدر الفذ للعقيدة المنشودة ، بعيدًا عن الشوائب والزوائد والفضول ، التي لحقت بها على مرِّ العصور ، وبهذا تبقي العقيدة على صفائها ووضوحها وبساطتها ، ولا نجعل آراء مدرسة معيَّنة أصلا يُحمل القرآن عليه ، وتجرُّ الآيات لتأييده .

٢- أن نتَّبع منهج القرآن في مخاطبة العقل والقلب معًا ، من أجل تكوين الإيمان الصحيح ، فبناء العقيدة على العقل وحده كما هو اتجاه الفلاسفة ، أو على القلب وحده كما هو اتجاه الصوفية ، لا يتَّفق مع شمول المنهج الإسلامي ، الذي يقوم الإيمان فيه على اقتناع العقل ، وانفعال القلب ، وصدق الإرادة .

٣- الاهتمام بأدلَّة القرآن التي ذكرها لإثبات معتقداته ، وإقناع مدعويه ، والردِّ على خصومه ، وتفنيد ما يثيرونه من شبهات ومفتريات . مثل : أدلة القرآن على وجود الله التي أشار إليها مثل ابن رشد في (مناهج الأدلة) ، والعقاد في (الله) ، والجسر في (قصة الإيمان) ، وغيرهم . وكذلك أدلَّته على التوحيد ، وعلى البعث وعلى نبوة محمد ﷺ . وكلُّها أدلة عقلية برهانية صريحة ، وليست خطابية أو إقناعية كما وهم بعض المتكلِّمين .

٤- صرف الهمة إلى مشكلات العقل المعاصر ، والاشتغال بقضايا العقيدة الكبرى مثل : وجود الله تعالى ، توحيده ، النبوة ، الحياة الأخرى ، القَدَر[١] . أما المشكلات التاريخية مثل : خلق القرآن ، أو الصفات وعلاقتها بالذات : هل هي عين أم غير ، أم لا عين ولا غير؟ إلخ . فينبغي أن تُدرَس كتاريخ للفكر الإسلامي ، ولا ننفق فيها من الوقت والجهد ما نحن في حاجة إليه لمواجهة معضلات زماننا .

٥- الاستفادة من ثقافة العصر ، وخصوصا في ميادين العلوم البحتة ، كالفلك والطب والفيزياء وغيرها ، لتأييد قضايا العقيدة وتثبيتها . كما فعل ذلك كثير من المؤلِّفين في زماننا من الأجانب والمسلمين ، مثل صاحب (العلم يدعو إلى الإيمان) ، وأصحاب (الله يتجلَّى في عصر العلم) ، وصاحب (قصة الإيمان) ، ومؤلف (الله والعلم الحديث) ، و(الإسلام يتحدَّى) . . . وغيرها .

٦- أن نتبنَّى طريقة السلف في وصف الله تعالى بما وصف به نفسه ، من غير تكييف ولا تمثيل ، ولا تحريف ولا تعطيل . وهي الطريقة التي انتهى إليها أساطين علم الكلام من الأشاعرة وغيرهم ، مثل : أبي الحسن الأشعري في (الإبانة) ، والغزالي في (إلجام العوام عن علم الكلام) ، والفخر الرازي في (أقسام اللذات) ، حيث يقول فيه : (لقد تأمَّلتُ المناهج الفلسفية ، والطرق الكلامية ، فلم أرها تشفي عليلا أو تنقع غليلا . ورأيتُ خير الطرق طريقة القرآن : أقرأ في الإثبات : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه:٥)، وأقرأ في النفي : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾(الشورى:١١) . ومن جرَّب مثل تجربتي ، عرَف مثل معرفتي)[٢] .

٧- أن نتتبَّع شبهات المبشِّرين والمستشرقين والشيوعيين وغيرهم من خصوم الإسلام وتلاميذهم ، والرد عليها ردًّا علميًّا فكريًّا بلسان العصر .

---

(١) انظر : كتبنا (وجود الله) و(حقيقة التوحيد) و(الإيمان بالقدر) نشر مكتبة وهبة .

(٢) جزء من وصيته لتلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصبهاني ، ذكرها الذهبي في تاريخ الإسلام (٢٢٠/٤٣) .

• التصوف :

التصوف هو العلم الذي يبحث في الجانب الأخلاقي والعاطفي من الثقافة الإسلامية .

ولا ينكر الدارسون أن التصوف قد أثَّرت فيه ـ إلى حدٍّ ما ـ عوامل أجنبية : مسيحية أو هندية أو فارسية أو يونانية ، إلى جوار العوامل الإسلامية أيضًا ، وأنه قد دخلت فيه ـ على مرِّ الأزمان ـ أفكار غريبة من شتَّى المصادر المذكورة أو غيرها . حتى انتهى بعض أنواع التصوف إلى القول بالحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود[1] ، وكان لبعضهم كلام عن (قدم النور المحمدي) ، أو ما يسمُّونه (الحقيقة المحمدية) ، وكلام عن الولاية والأولياء ، وعن الكشف والمواجيد والأذواق وتحكيمها في النصوص الدينية ، وتفرقتهم بين الحقيقة والشريعة ، وتربية المريد أن يكون بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل ، وغلوهم في الزهد وما يتعلَّق به إلى حدٍّ يخرج عن وسطية الإسلام إلى رهبانية النصارى .

لهذا ولغيره ، وقف كثير من الحريصين على التمسُّك بالسنة موقف الريبة بل الخصومة ، من التصوف وتراثه ورجاله ، وأعلن بعضهم حربا على التصوف كلِّه ، قديمه وحديثه ، سنيِّه وبدعيِّه ، وحمَّله أوزار كلِّ الانحرافات الفكرية والسلوكية التي ابتُلي بها المسلمون في القرون الأخيرة . وبالتالي دعا إلى نبذ هذا التراث وهجره ، خشية ما يتخلَّله من مفاهيم لا تتلاءم مع الإسلام . والذي نريد أن نؤكِّد عليه هنا :

أولا : أن التصوف الفلسفي كلُّه مرفوض من أساسه ، وإذا درسناه فإنما ندرسه لنردَّ عليه ، ونبيِّن فساده ، ومنافاته للإسلام . ونريد بالتصوف الفلسفي : القائم على فكرة (الحلول) و(وحدة الوجود) .

ثانيًا : أن الذي يعنينا من التصوف هو الجانب الأخلاقي والتربوي ، وهو الذي قال فيه ابن القيم في (المدارج) : (اجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف

---

(١) انظر : فصل (التصوف الفلسفي) من كتاب (مدخل إلى التصوف الإسلامي) للأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازاني صـ٢٢٧ وما بعده .

هو الخلق)[1] وعبّر عنه الكتاني بقوله : (التصوف خلق ، فمَن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف)[2] .

ثالثًا : أننا يجب أن ننتقي من التصوف ما يخدم العقيدة الإسلامية ، والأخلاق الإسلامية . وندع كلَّ ما فيه شائبة أو ريبة ، وننتفع في ذلك بمَن نقد الصوفية مثل ابن الجوزي في (تلبيس إبليس) وغيره .

كما نرى أن من الإنصاف أن نبيِّن أن في التراث الصوفي ـ على ما فيه من مآخذ ـ فوائد لا تُنكر منها :

١- أنه يجمع كثيرًا من أقوال الصالحين ، وحِكَم الزهَّاد والعبَّاد وأهل التقوى والبصيرة .

٢- أن فيه لفتات رُوحية مشرقة في فَهم الآيات والأحاديث والتعليق عليها لا توجد عند غيرهم .

٣- أن الصوفية ، حين عني الفقهاء بأحكام الظاهر المحسِّ ، والمتكلِّمون بالجانب العقلي الجاف : عنوا هم بأحكام الباطن ، ودراسة آفات النفوس ، ومداخل الشيطان إليها ، وكيفية وقايتها وعلاجها . ولهم في ذلك من الممارسات والتجارب والمعارف ، ما ليس لطائفة غيرهم .

٤- أن في أقوالهم حرارة وحيوية يلمسها قارئها ، ولعل ذلك نتيجة المجاهدة النفسية ، والرياضة الروحية التي يعانونها ، وليست النائحة كالثكلى .

٥- أن الصوفية الأوائل الذين وضعوا أسس التصوف ومهدوا طريقه ، رفضوا كلَّ محاولة لإخراجه عن الشرع ، وأبَوا إلا تقييده بالقرآن والسنة .

قال سيد الطائفة (الجنيد) : مَن لم يقرأ القرآن ، ويكتب الحديث ، لا يُقتدى به في هذا الأمر ؛ لأن علمنا مقيَّد بالكتاب والسنة . وقال : مذهبنا مقيَّد بأصول الكتاب

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣١٦/٢) ، تحقيق محمد حامد الفقي ، طبعة السنة المحمدية ، القاهرة .
(٢) مدارج السالكين (٣٠٧/٢) .

والسنة . وكذلك جاء عن أبي حفص والداراني وابن أبي الحواري والسَّرِّي السَّقَطي وغيرهم ، كما نقله عنهم القُشيري وغيره[1] .

٦- أن من أئمة الدعوة السلفية مَن تكلم في التصوف وألَّف فيه ، وردَّ على باطله ، وأشاد بما فيه من حقٍّ ، كما يتَّضح ذلك في رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية ، مثل (العبودية) و(التحفة العراقية في الأعمال القلبية) ورسالة (الفقراء) وغيرها من الفتاوى والرسائل والبحوث ، التي ظهرت في مجلدين من مجموع فتاويه ، أحدهما تحت عنوان : (التصوف) ، والثاني تحت عنوان : (السلوك) . وكذلك مؤلفات تلميذه المحقِّق العلامة ابن القيم في ذلك ، وهي كثيرة منها : (طريق الهجرتين) ، و(عدة الصابرين) ، و(ذخيرة الشاكرين) ، و(الداء ، والدواء) ، وأعظمها (مدارج السالكين شرح منازل السائرين) في ثلاثة مجلدات ، وفيه وزن علوم القوم بميزان الكتاب والسنة .

• النظام الإسلامي :

ومن أهم ما ينبغي للداعية أن يدرسه دراسة وعي وهضم : النظام الإسلامي ، أو نظام الإسلام ، أو المذهبية الإسلامية ، أو فلسفة الإسلام .

ونعني بهذا دراسة الإسلام خالصا غير مشوب ، متكاملا غير مجزَّأ . . . الإسلام باعتباره مذهبا متميِّزًا ، ونظاما كاملا للحياة : الحياة الفردية ، والحياة الاجتماعية ، والحياة المادية ، والحياة المعنوية . ولا يغني عن هذه الدراسة للإسلام المتكامل دراسة العلوم الإسلامية من التفسير والحديث والفقه والتوحيد ونحوها ، لأنها لا تعطي نظرة عامة للإسلام كلِّه ، وإنما تعطي نظرات متفرِّقة لجوانب منه ، كلٌّ على حدة ، دون إحكام الربط بينها ، وأن الخطر على فَهم الإسلام فَهما صحيحا يتمثَّل في عدَّة أمور يجب التحرُّز منها :

١- أن يُزاد عليه ، ويلصق به ما ليس منه من رواسب الديانات السابقة ، وثنية ومحرَّفة . وشوائب النِّحَل والمذاهب ، شرقية وغربية . وذلك بعد أن أكمله الله

(١) انظر : مدارج السالكين (٤٦٤/٢) ، وما بعدها .

للأمة ، وأتمَّ عليها به النعمة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة:٣) ، والكامل لا يقبل الزيادة كما لا يقبل النقص . ولهذا شدَّد الرسول ﷺ التحذير من الإحداث والابتداع في الدين .

٢- أن ينقص منه ما هو من أجزائه وصُلب كيانه ، أو يؤخذ بعضه دون بعض ، كما فعل بنو إسرائيل بدينهم ، آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض . وفي عصرنا قامت محاولات لتجزئة الإسلام ، أو إهدار بعض تعاليمه ، كالذين يريدون الإسلام عقيدة بغير شريعة ، أو دينا بلا دولة ، أو صلاة بدون زكاة ، أو سلاما بلا جهاد ، أو زواجا بلا طلاق . . . إلخ . والإسلام وحدة لا تقبل التجزئة والتفكيك ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ (البقرة:٢٠٨) .

٣- أن تشوَّه تعاليمه في العقيدة ، أو العبادة ، أو الأخلاق ، أو التشريع ، فتُعرض على غير حقيقتها ممسوخة محرَّفة ، بفعل الجهل أو الهوى ، كما شوِّهت فكرة القضاء والقدر في العقيدة ، أو فكرة الحجِّ في العبادة ، أو فكرة الزهد في الأخلاق ، أو فكرة الطلاق وتعدُّد الزوجات وضرب الزوجة الناشز في نظام الأسرة ، أو فكرة الجهاد في نظام الدولة ، وفكرة الحدود في نظام العقوبات .

٤- أن يختلَّ التوازن بين قِيَمه وتعاليمه ، فيُعطى بعضها دون حقِّه ، ويأخذ بعضها الآخر أكثر من حقِّه ، ويقدَّم ما يستحقُّ التأخير ، ويؤخَّر ما يستحقُّ التقديم . مع أن الإسلام قد أعطى كلَّ عمل من الأعمال ، وكلَّ واحد من تعاليمه قيمة و(سِعْرًا) خاصا ، فلا توضع الفروع موضع الأصول ، ولا تحتلُّ النوافل مكان الفرائض ، ولا تُقدَّم أعمال الجوارح على أعمال القلوب ، ولا تؤثَّر القُربات الفردية القاصرة على العبادات الاجتماعية المتعدِّية ، بل يوضع كلُّ شيء في مرتبته الشرعية دون غلوٍّ ولا تقصير ، وإلا اضطربت المعايير ، وقُدِّم ما حقُّه التأخير .

ومن هنا ينبغي عند دراسة النظام الإسلامي أو الكتابة تفادي هذه الأخطار الأربعة : من الزيادة فيه ، أو النقص منه ، أو التشويه له ، أو الإخلال بتوازنه . وينبغي إذن أن يدرس النظام الإسلامي ، وإن شئتَ قلتَ : يدرس الإسلام على هذه الصورة :

(أ) خالصا مصفًّى من الشوائب والفضول والزيادات التي ألصقت به على مرِّ العصور. ويجب العودة إلى نقاء الإسلام الأول : إسلام القرآن والسنة ، إسلام الصحابة وتابعيهم بإحسان ، قبل أن تظهر الفِرَق ، وتطرأ البدع ، وتتفاقم الفتن .

(ب) شاملا متكاملا ، غير مبتور ، ولا مجزأً ، ولا محذوف منه ، بعقائده وتصوراته ، بشعائره وعباداته ، بأخلاقه وآدابه ، بنُظمه وتشريعاته : الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمدنية والجنائية ، مع وجوب الربط بينها ، وشدِّها جميعا إلى أصل أصولها ، وأساس بنائها ، وهو توحيد الله تعالى .

(جـ) سليما كاملا ، مبرأً من تشويه المشوِّهين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، وذلك بالرجوع إلى المصادر الأصلية للإسلام ، مع العناية بتوثيق الدليل ، وحسن التعليل ، والاهتمام بإبراز خصائص الإسلام : ربانيته ، إنسانيته ، شموليته ، وسطيته ، واقعيته ، إلخ .

(د) متوازنا متَّسقا ، واضح التقاسيم ، محدَّد المفاهيم ، مرتَّب التعاليم ، بحيث يُقدَّم فيه الأهم على المهم ، والمهم على غير المهم . وتوضع مبادئه وأحكامه في مراتبها الشرعية : العقيدة قبل العمل ، والعبادة قبل المعاملة ، والفرائض قبل النوافل ، والكبائر قبل الصغائر ، والأركان قبل غيرها .

وينبغي أن يُستفاد من كتابات المعاصرين من رجالات الفكر الإسلامي في أنحاء العالم الإسلامي ، وذلك في المجالات الأساسية للنظام الإسلامي ، ونرشِّح لذلك بعض الكتب على سبيل المثال لا الحصر . وإن كان كلُّ بشر يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ .

أولا : في مجال العقيدة والأسس الفكرية :

١- مبادئ الإسلام	أبو الأعلى المودودي .
٢- العقائد الإسلامية	حسن البنا .
٣- خصائص التصور الإسلامي	سيد قطب .
٤- قصة الإيمان بين العلم والفلسفة والقرآن	نديم الجسر .
٥- نظام الإسلام : العقيدة والعبادة	محمد المبارك .
٦- الإسلام يتحدى	وحيد الدين خان .
٧- الله جل جلاله	سعيد حوى .
٨- الرسول ﷺ	سعيد حوى .
٩- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه	عباس العقاد .
١٠- عقيدة المسلم	محمد الغزالي .
١١- الإيمان والحياة	يوسف القرضاوي .

ثانيًا : في مجال العبادة والشعائر :

١- الأركان الأربعة	أبو الحسن الندوي .
٢- العبادة في الإسلام	يوسف القرضاوي .

ثالثًا : في مجال الأخلاق :

١- ربانية لا رهبانية	أبو الحسن الندوي .
٢- خلق المسلم	محمد الغزالي .
٣- دستور الأخلاق في القرآن	محمد عبد الله دراز .

رابعًا : في مجال التشريع والنظام الاجتماعى :

١- العدالة الاجتماعية في الإسلام	سيد قطب .
٢- خطوط رئيسية في الاقتصاد الإسلامي	محمود أبو السعود .
٣- منهاج الإسلام في الحكم	محمد أسد .
٤- نظام الاقتصاد	محمد المبارك .

obeikandi.com

٥- الحكم والدولة	محمد المبارك .
٦- الاقتصاد الإسلامى (مدخل ومنهاج)	عيسى عبده إبراهيم .
٧-الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر مشكلات الحكم والتوجيه	محمد البهي .
٨-الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر مشكلات الأسرة والتكافل	محمد البهي .
٩- الإسلام والأوضاع الاقتصادية	محمد الغزالي .
١٠- الإسلام المفترى عليه	محمد الغزالي .
١١- اشتراكية الإسلام	مصطفى السباعي .
١٢- الثروة في ظل الإسلام	البهي الخولي .
١٣- فقه الزكاة دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة	يوسف القرضاوي .
١٤- مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام	يوسف القرضاوي .
١٥- غير المسلمين في المجتمع الإسلامي	يوسف القرضاوي .
١٦- التشريع الجنائى الإسلامى	عبد القادر عودة .
١٧- الإسلام عقيدة وشريعة	محمود شلتوت .
١٨- أحكام الذميين والمستأمنين في شريعة الإسلام	عبد الكريم زيدان .
١٩- الفرد والدولة في شريعة الإسلام	عبد الكريم زيدان .
٢٠- المجتمع الإنساني في ظل الإسلام	محمد أبو زهرة .
٢١- نظام الحكم في الإسلام	محمد عبد الله العربي .
٢٢- نظرية الإسلام وهديه في السياسة والدستور	أبو الأعلى المودودي .
٢٣- الربا والاقتصاد الإسلامي	أبو الأعلى المودودي .
٢٤- الحجاب	أبو الأعلى المودودي .
٢٥- مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي	حسن البنا .
٢٦- الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة	البهي الخولي .

* * *

obeikandi.com